محاضرات حول
تفسير بعض السُّوَر والآيات القرآنية
وبيان الشُّعَب الإيمانية

ألقاها
الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدّين الحسيني
رحمه الله تعالى ورضي عنه

تقديم وجمع
ولده المهندس الشيخ
محمد محيي الدّين سراج الدّين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

مُحاضَرات حول

تفسير بعض السُّوَر والآيات القرآنيّة

وبيان الشُّعَب الإيمانيّة

ألقاها

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى ورضي عنه

تقديم وجمع

ولده المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

اعتنى بها

الدكتور بكري بريمو السمان

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى العَلّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين الحُسيني

وإلى ولده العالِم العامل

المهندس الشيخ

محمد مُحيي الدين سِراج الدِّين

رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام

www.srajalden.com

المحاضرة الأولى
حول تفسير أوائل آيات سورة الحجرات

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد نزلَت سورة الحُجرات في المدينة المُنوَّرة التي استنارت بأنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها سبحانه مجامِع الآداب، فذكر أولاً: الأدب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، وذكر آداب المؤمنين فيما بينهم، ولذلك سُميت هذه السورة: (سورة الحجرات) لأنَّ فيها حجرات الآداب -وإن كان قد ذُكر فيها حُجرات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي بيوته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ أي باعتبار أنَّكم آمنتم فإن الإيمان يقتضي منكم أن تمتثِلوا أمر الله تعالى فيما يأمُركم به، وأن تنتهوا عما ينهاكم عنه، وفي الآية ينهاكم الله تعالى عن التَّقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيقول جل وعلا: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ**﴾ صلى الله عليه وسلم أي لا تتقدَّموا بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: إيَّاكم أن تتقدموا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر من الأمور، بل كونوا دائماً مُتَّبعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وإنَّ مَن خالَف الله تعالى فيما شَرَعه أو بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ضرب الله له مثَلاً في الوَقَاحة والقَبَاحة كأنَّه تقدَّم في المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهره، فما أشنَعَ وما أقبحَ من يفعل ذلك!

وقد ذَكر الله تعالى اسمه الكريم في قوله جل وعلا: ﴿**لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ**﴾ ذَكَره مَقروناً بذِكر رسوله صلى الله عليه وسلم من باب التَّكريم والتَّشريف والتَّعظيم له صلى الله عليه وسلم، لأنَّ التَّقدم بين يدي الله تعالى لا يُتصوَّر -إذ ليس كمثله شيء جلَّ وعلا- وهذا التَّكريم الإلهي له صلى الله عليه وسلم يندَرِج في رَفع الله تعالى لذِكر حبيبه صلى الله عليه وسلم -الذي قال جل وعلا له: ﴿**وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ**﴾-.

وقد جاء بيان ذلك في الحديث القدسي: [لا أُذكر إلا ذُكرتَ معي][١] فَقَرَنَ سبحانه في الآية اسم حبيبه صلى الله عليه وسلم باسمه سبحانه تشريفاً وإعلاءً لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿**لَا تُقَدِّمُواْ**﴾: أي لا تقدّموا أمراً ولا فِعلاً ولا قَولاً ولا رأياً على شيء ممَّا جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، بل كونوا في أقوالكم وأفعالكم متَّبعين لِمَا شَرَعَه الله لكم ولِما سَنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد نزلت هذه الآية لِعدَّة مناسبات؛ منها قول قوم: (لو أنزل الله فينا كذا لكان كذا) (لو أُمِرنا بكذا لكان كذا) (لو نُهينا عن كذا لكان كذا) فنزلت الآية بالنَّهي عن ذلك، وبيان أنَّ الله تعالى شرع لعباده ما فيه الكِفاية والغاية في مصالحهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة.

---

[١] انظر دلائل النبوة للبيهقي واللفظ له ومسند أبي يعلى وصحيح ابن حبان

ومما جاء في سبب نزول هذه الآية أيضاً أن قوماً نحروا ذبائحهم قبل صلاة يوم النحر وقبل أن يَنحَر سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نَبْدَأَ بِالصَّلَاةِ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ وَافَقَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ عَجَّلَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ][1].. الحديث

فلمَّا تقدَّم هؤلاء على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله جل جلاله: ﴿**لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ**﴾ أي في أقوالكم وأفعالكم بأن تكون موافقة لِمَا جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بِكم وبأعمالكم، فاتَّقُوه سبحانه.

ولهذا كان حِرص الصَّحابة رضي الله عنهم شديداً في اتِّباع النبي صلى الله عليه وسلم في عباداته وعاداته صلى الله عليه وسلم، لأَنَّهم أيقنوا أنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفعاله وأقواله مُحْكَمة مُسَدَّدة بوحي الله تعالى إليه الذي أنزل عليه الكتاب والحِكمة، ولذلك اتَّخذوه صلى الله عليه وسلم إمامهم، وجعلوه صلى الله عليه وسلم أَمَامهم، وراحوا يقتدون به في جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم[2].

قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ**﴾ صلى الله عليه وسلم، وهذا من الآداب المَفروضة على كلِّ مؤمن تجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بأن يكون مُستوى صوته مُنخفِضاً عن مستوى صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم،

[1] صحيح البخاري كتاب الجمعة

[2] وتجدُ ذلك مُفصَّلاً في كتاب: (حول تفسير سورة الحُجُرات) للشيخ الإمام رضي الله عنه

وأن يجعلَ صوتَ النَّبي صلى الله عليه وسلم فوق صوته، لأنَّ التَّعالي بالصَّوت فيه إساءة الأدب وعدم مُراعاة المَقام، وأمَّا خَفض الصَّوت فيدل على الأدب مع من تُكلِّمه والتَّعظيم له.

وأمَّا إذا اقتضى الأمر رَفع الصوت في مجلِس النَّبي صلى الله عليه وسلم أو في حَضْرته عليه الصَّلاة والسَّلام -ولم يكن من باب الكَلام معه صلى الله عليه وسلم، بل لأمر آخر- فلا يدخُل هذا تحت النَّهي المَذكور في الآية، ومن ذلك: الأَذان للصَّلوات ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسمع.

ومن ذلك أيضاً: أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يأمر شاعِره حسَّان بن ثابت رضي الله عنه أن يُنشِد أشعاراً يردُّ بها على المُشركين ويرفع صوته بذلك، ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لحسان رضي الله عنه: [اُهْجُ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ][١].

وقال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ أَوْ يُنَافِحُ] أي: يدافع [عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][٢] .

وجاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عمَّه العباس رضي الله عنه يوم حُنَيْن أن ينادي بصوت عال، فقال له: [أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، فَقَالَ عَبَّاسٌ -وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا[٣]- فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ[٤]؟][٥]... الحديث

وكان العباس رضي الله عنه إذا صاح في الذئب -الذي يريد افتراس الغنم- انفجرت مرارة الذئب ومات، ولما سُئل ابنه عبد الله رضي الله عنه عن غنمه: ما لها لا تتأثر بقوة صوته؟ قال: إنها أَلِفت صوته[٦] .

---

[١] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المغازي

[٢] سنن الترمذي كتاب الأدب

[٣] أي: ذا صوت قوي

[٤] قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم١٢/١١٥: (هِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي بَايَعُوا تَحْتَهَا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ).

[٥] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير

[٦] انظر تفسير الآلوسي عند كلامه حول الآية الأولى من سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ صلى الله عليه وسلم: أي عند المكالمة أو المخاطبة له صلى الله عليه وسلم، وليكن صوتكم منخفضاً عن صوته الشريف صلى الله عليه وسلم، مراعاة للأدب وحرمة لمقامه الشريف صلى الله عليه وسلم.

وقد نص العلماء - فيما ذكره عنهم الشيخ أبو بكر بن العربي[1] وكذا الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي [2] رضي الله عنهم أجمعين- نصوا على أن: (حُرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً) فكما لا يجوز لك أن ترفع صوتك فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الدنيوية كذلك لا يجوز لك أن ترفع صوتك بحضرته الشريفة عند زيارته بعد وفاته وانتقاله إلى الحياة البرزخية العالية صلى الله عليه وسلم.

وكما يجب عليك الأدب والإصغاء لمّا تسمع الحديث منه صلى الله عليه وسلم كذلك يجب عليك التأدب والإصغاء لمّا تسمع حديثه صلى الله عليه وسلم من العلماء والمحدِّثين، ولا يجوز لك أن ترفع صوتك في مجلس أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز لك أن تُعرض عنها، وذلك لأن القرآن الكريم والحديث الشريف كلاهما من عند الله تعالى، لكن القرآن الكريم نزل بالوحي القرآني وله صفة الإعجاز، أما حديثه الشريف صلى الله عليه وسلم فهو بالوحي النبوي، قال صلى الله عليه وسلم:

---

[1] انظر كتاب (أحكام القرآن) ١٤٦/٤ وابن العربي هو سيدي محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، إمام من أئمة المالكية، وهو فقيه محدِّث مفسّر أصولي، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ٥٤٣ هـ

[2] هو سيدي محمدُ بن عليّ بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي، مِن وَلَد عبد الله بن حاتم أخي الصحابي الجليل عديّ بن حاتم، ويلقب بـ (محيي الدين)، ويُكنّى (أبا عبد الله) و(أبا بكر)، ويُعرف بـ (الحاتمي) أو (الطائي) وبـ (ابن عربي)، وفي المغرب بـ (ابن العربي)، وفي الأندلس بـ (ابن سُراقة)، وكذلك يُدعى بـ (سلطان العارفين وإمام المتقين)، وغيرها من ألقاب التبجيل والتشريف التي تليق به.
وكان شيخنا الإمام يذكره بوصف: (الشيخ الأكبر).
ولد رضي الله عنه وأرضاه في مدينة مُرسِية شرقي الأندلس، وتوفي ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٦٣٨ للهجرة، ودفن بسفح جبل قاسيون ، وقبره مشهور يُزار .

[أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ][1] فجاءت أحاديثه صلى الله عليه وسلم بيانات للقرآن الكريم، وفيها المواعظ والتذكير على نهج القرآن الكريم.

فكما يجب عليك أن تتأدب وتصغي إلى كلام الله تعالى لمّا تسمعه مِن مخلوق مِن خلْقِ الله تعالى -وإن لم تسمعه من حضرة رب العزة جل وعلا- كذلك يجب عليك أن تتأدب وتصغي إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تسمعه من المحدِّثين والعلماء -وإن لم تسمعه مباشرة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- وقد قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾.

وليس من الأدب ذِكر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في أماكن اللهو وعمل الدنيا كالأسواق والطرقات.

وكَانَ الإمام مَالك بن أنس رضي الله عنه إِذا أَرَادَ أَن يُحَدِّث تَوَضَّأ وَجلسَ على صدر فرَاشه وسرّح لحيته وَتمكّن من جُلُوسه بوقار وهيبة وَحَدَّثَ، فَقيل لَهُ فِي ذَلِك فَقَالَ: (أحب أَن أعظّم حَدِيث رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، وَلَا أحدّث إِلَّا على طَهَارَة، مُتَمَكنًا)، وَكَانَ يكره أَن يحدّث فِي الطَّرِيق أَو وَهُوَ قَائِم أَو مستعجل، وَقَالَ: (أحب أَن أتَفَهّم مَا أحدّث بِهِ عَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم)[2].

وروي أيضاً عنه أنه رضي الله عنه كان يغتسل لذلك ويتطيب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زجره وقال: (قال الله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ**﴾ فمَن رفع صوته عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3].

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ١٦٥٤٦ وسنن أبي داود كتاب السنة

[2] انظر كتاب (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنة) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ورضي عنه الصفحة ٥١

[3] انظر (مقدمة ابن الصلاح) رحمه الله تعالى ورضي عنه الصفحة ٥٣

فيجب على العالم أو الواعظ أن يأتي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكان محترم نظيف طاهر طيب كالمساجد ودور العلم ونحوها.

كما يجب على الواعظ أن يأتي بالحديث بنصّه وتمام ألفاظه لا أن يخلط فيها ويتصرف بكلمات الحديث الشريف من تلقاء نفسه ثم يختم حديثه بقوله: (أو كما قال صلى الله عليه وسلم) وللعلماء أبحاث في بيان ذلك مفصلاً .

ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فَهِم الصحابة رضي الله عنهم حتمية الأمر ووجوبه عليهم ، لأن فيه التهديد والوعيد بإحباط العمل، وخافوا رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد رفع صوته وهو لا يشعر.

فهذا أبو بكر رضي الله عنه -شيخ الصّدّيقين- لمّا نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ صلى الله عليه وسلم قال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا أُكَلِّمُكَ إِلا كَأَخِي السِّرَارِ[1] حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ تعالى)[2].

وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه لمّا سمع الآية جعل يخفض صوته لما يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفهمه الكلام أحياناً، كما جاء هذا في صحيح البخاري وغيره[3] .

---

[1] أي: لا أكلمك إلا سراً

[2] رواه البزّار في مسنده والحاكم في المستدرك وصححه

[3] انظر صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ومسند الإمام أحمد ١٥٥٤٨

وإن الأصل في الأمر الوجوب ما لم يصرفه صارف من الكتاب أو السنة إلى الاستحباب، وكذلك الأصل في النهي التحريم ما لم يصرفه صارف من الكتاب أو السنة إلى الكراهة[1].

ولما جاءت الآية بالوعيد والتهديد بإحباط عمل مَن رفع صوته على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أساء الأدب معه صلى الله عليه وسلم: دلّ ذلك على أن إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر المحرَّمة المُحبِطة للأعمال الصالحة -وإن صدرت عن الإنسان بغير قصد ونيّة- لأنه لو نوى أو قصد إساءة الأدب لَكَفَرَ وارتدّ عن دين الله تعالى.

نسأل الله العافية.

وقد ذكر العلماء أن الآية جاءت بالنهي عن رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم، ففيها النهي كذلك -من باب أولى- عن رفع الرأي فوق رأيه صلى الله عليه وسلم، أو رفع الفهم فوق فهمه صلى الله عليه وسلم.

وعلى الإنسان أن يستحسن ما استحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكره ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي لا تخاطبوه صلى الله عليه وسلم كخطاب بعضكم بعضاً، ولا تكلّموه صلى الله عليه وسلم كما يكلم بعضكم بعضاً، بل إن الخطاب يجب أن يكون بألفاظ التعظيم والتكريم، كما يجب التزام جانب الأدب عند تكليمه أو الحديث معه صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم الصالحة من جهاد وصلاة وصوم وحج وغيرها إن أنتم رفعتم أصواتكم فوق صوته صلى الله عليه وسلم، أو جهرتم بالقول معه كجهر بعضكم لبعض، أو صدر منكم ما فيه إساءة أدب معه صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر (الورقات) ٢/١٣ لإمام الحرمين الجُوَيني

وعلى قدر إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون حبوط العمل -كما نص عليه العلماء.

ولك -أيها المؤمن العاقل- في سيرة الصحابة رضي الله عنهم ومناقبهم في الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لك في ذلك عبرة وموعظة تَدُلُّك على وجوب التزام الأدب معه صلى الله عليه وسلم وتحملك على ذلك لئلا يحبط عملك الصالح وأنت لا تشعر.

ومن ذلك قصة ثابت بن قيس بن شمّاس رضي الله عنه، ففي صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ[1]، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ][2].

وفي المعجم الكبير للطبراني أنه لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿**لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ**﴾ قَعَدَ ثَابِتٌ فِي الطَّرِيقِ يَبْكِي، فَمَرَّ بِهِ عَاصِمُ بن عَدِيٍّ فقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: أَنَا رفيْعُ الصَّوْتِ[3] وأَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَا بُنيَّ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ]؟

فَقَالَ : رَضِيتُ بِبُشْرَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لا أَرْفَعُ صَوْتِي أَبَدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَتْ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ**﴾.

---

[1] أي خَبَرَهُ
[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[3] أي جهوري الصوت

وقد قُتل ثابت رضي الله عنه شهيداً يوم اليمامة -كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم مبشراً له- فقد خرج مع خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم اليمامة إلى مسيلمة الكذاب فلما لقي أصحابَ رسول الله قد انكشفوا[1] قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة -أحد قراء الصحابة بالصوت الحسن رضي الله عنهم أجمعين- قال له: ما هكذا كنا نقاتِل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم حفر كلٌّ منهما لنفسه حفرة، وحمل عليهم القوم فثبتا حتى قُتلا.

وكانت على ثابت يومئذ دِرع له نفيسةٌ، فمرَّ به رجل من المسلمين -ليس من الصحابة- فأخذها، فبينا رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت بن قيس رضي الله عنه في منامه فقال له: إني أُوصيك بوصية: إيَّاك أن تقول: "هذا حُلم" فتضيِّعه، إني لما قُتلت أمس مرَّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس يستنُّ في طوله، وقد كفأ على الدرع بُرْمةً -أي : قِدراً- وجعل فوق البرمة رَحْلاً، فأتِ خالد بن الوليد -قائد الجيش- فَمُرْهُ أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -أبي بكر- فأخبره أَنَّ عليّ من الدَّين كذا وكذا، ولي من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان؛ فإياك أن تقول: " هذا حلم" فتضيعه -يعني : إن هذا منام حقٌّ فلا تضيعه-.

فأتى الرجلُ إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخبره بما رأى، فبعث خالد رضي الله عنه إلى الدرع فنظر إلى خِباءٍ في أقصى العسكر فإذا عنده فرس يَسْتَنُّ في طوله، فنظر إلى الخباء فإذا ليس فيه أحد، فدخلوا فرفعوا الرَّحْل فإذا تحته برمة، ثم رفعوا البُرمة فإذا الدرع تحتها ، فأتوا به خالد بن الوليد رضي الله عنه .

فلما قدموا المدينة حدَّث الرجلُ الرائيْ أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجاز وصيته - أي : وصية ثابت رضي الله عنه - بعد موته .

---

[1] أي: تراجعوا كأنهم منهزمون.

ولا يُعلم أحد من المسلمين جُوِّزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه.[1] اهـ

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

[1] انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي فقد عزاه إلى البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه والخطيب في (المتفق والمفترق).

المحاضرة الثانية

حول تفسير أوائل آيات سورة الحجرات

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ صلى الله عليه وسلم، أي: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت هذا النبي المعروف عند الأولين والآخرين وعند أهل السماوات والأرضين.

و {ال} في قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ هي للعهد الذهني، فهو صلى الله عليه وسلم عَلَم الأعلام، وهو النبي الذي جمع الله له النبوات كلها وختمها به صلى الله عليه وسلم، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المحمود عند أهل السماء والأرض وفي الملأ الأعلى والأدنى.

ومتى أطلقت كلمة: ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ في القرآن الكريم فالمراد منها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه صلى الله عليه وسلم عَلَم الأعلام وإمام الأنبياء، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ أي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبي الجامع للنبوّات والخاتم لها.

قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي لأنه صلى الله عليه وسلم هو النبي صاحب المقام الرفيع والجاه العريض، وقد فضّله الله تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين، فيجب التزام الأدب معه وبحضرته صلى الله عليه وسلم.

ويقال على لسان علماء الأصول:

(تعليق الحكم على مشتق يُؤْذِن بعلة الاشتقاق)[1] -أي يعرِّفك بعلّة الحكم-

فلما قال سبحانه: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ هذا حكم يتضمن نهياً، والعلة والحكمة مِن ذلك الحُكم دلت عليها الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: ولا أعلى ولا أعظم من منصب نبوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب خفض الصوت بحضرته صلى الله عليه وسلم، وهكذا فتعليق الحكم على المشتق يبيّن علة الحكم[2].

ولا يدرك حقيقة النبوة إلا نبي، لأن النبوة باب مورد إلهي كبير تَرِدُ منه العلوم والمعارف والانكشافات الغيبية على مَن أراد الله تعالى نبوّته.

وأعظم الأنبياء قدراً وفضلاً ومقاماً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأما الرسالة فهي وحي الله تعالى لهذا النبي أمره أن يبلّغه للناس.

وإذا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أَمَّ الأنبياء كلهم ليلة الإسراء والمعراج -وهو إمامهم وخطيبهم وصاحب شفاعتهم في الآخرة كما روى الإمام أحمد عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّاسِ] -وفي رواية: [كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ][3]- [وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ، وَلَا فَخْرَ][4]- فكيف يجب أن يكون موقفك معه صلى الله عليه وسلم؟

نعم يجب أن يكون موقفك موقف المتأدِّب والمتَّبِع له في كل ما جاء به صلى الله عليه وسلم.

---

[1] انظر (شرح التلويح على التوضيح) ١٩٨/١ للإمام سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه

[2] ومثال ذلك: قولك: (لا تُسِئ الأدب مع العلماء) أي لأنهم علماء.

[3] المسند ٢٠٢٩٣

[4] المسند ٢٠٢٩٦

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ] -أي فَمَنْ دونه مِن النبيين إلى عيسى عليهم السلام- [تَحْتَ لِوَائِي، وَلَا فَخْرَ][1]صلى الله عليه وسلم .

وإذا كنا قد نُهينا عن رفع أصواتنا فوق صوته صلى الله عليه وسلم فإن النهي يشمل -من باب أولى- التقدمَ برأيٍ أو فهمٍ فوق رأيه وفهمه صلى الله عليه وسلم، فكما يجب عليك أن تجعل لصَوْته صلى الله عليه وسلم السيادةَ والرتبة على صوتك كذلك يجب عليك أن يكون رأيك تحت ظل رأيه صلى الله عليه وسلم، وفهمك تحت ظل فهمه صلى الله عليه وسلم، وعقلك تابعاً ومهتدياً بهديه وشرعه صلى الله عليه وسلم .

وإياك أن تقف موقف المخطِّئ والمصحِّح أو الحاكم على أفعاله وأقواله صلى الله عليه وسلم، إذ إنه صلى الله عليه وسلم السيد المعصوم بعصمة الله تعالى عن الخطأ والخطيئة، ولا يصدر عنه إلا الحق والصواب والسداد، وهذا بمقتضى الحكمة التي آتاه الله تعالى إياها.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

[كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ؛ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟

فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ] -أي: إلى فمه الشريف صلى الله عليه وسلم- [فَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ][2].

وعند الدارمي: [اكْتُبْ، فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ][3] .

نعم ما خرج من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم وما يخرج منه إلا حق.

---

[1] طرف حديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٤١٥ واللفظ له والدارمي في سننه في المقدمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.
[2] سنن أبي داود كتاب العلم
[3] في مقدمة سننه

وقد جعل الله تعالى علامة الإيمان التحاكمَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ فلا تَعْكس الآية.

وإذا اشتبه عليك فهم شيء من الآيات النازلة بحقه صلى الله عليه وسلم فلا تكن ممن استحكمَ الزيغ على قلبه واتبَعَ المتشابهَ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله -أي تفسيره- على ما يهوى، بل عليك أن تردّ المتشابه إلى المحكم لأنه الأُمّ، فيزول التشابه وتفهم الفهم الصحيح من الآيات .

قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾ أي فلا تخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضاً، بل خاطبوه صلى الله عليه وسلم بألفاظ السيادة والتعظيم، ولا تكلموه صلى الله عليه وسلم كما يكلم بعضكم بعضاً، بل يجب التزام جانب الأدب معه صلى الله عليه وسلم حالاً ومآلاً.

وقد هدد سبحانه وأوعد من أساء الأدب معه صلى الله عليه وسلم أو رفع صوته على صوته صلى الله عليه وسلم؛ هدده بإحباط أعماله الصالحة مِن حج وزكاة وصلاة وجهاد وغير ذلك، مما يدل على أن إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن أكبر الكبائر المُحبِطة للأعمال، ولو تقصَّدها الإنسان لكفر.

ونسأل الله أن يرزقنا الأدب الكامل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. آمين

قوله تعالى: ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ أي: لا تشعرون أن أعمالكم قد حبطت بسبب ارتكابكم هذا النهي.

واعلم أن إساءة الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هي في الحقيقة إساءة أدب مع الله تعالى، لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله ونبي الله، فهو سفير معبِّر عن الله تعالى، وناطق عن الله تعالى، وشرف الرسول على شرف مرسله، فما بالك بشرف وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذاً؟

ومِن الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تُسند إليه حديثاً ما لم تكن متأكداً من صحة ألفاظه ورواته، وألا تُسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تسمعه من أقاويل الناس التي لا أصل لها في كتب الحديث الشريف.

فقد روى البخاري وغيره عن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ.

مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ][1].

وروى البخاري أيضاً عن سلمة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ][2].

ومِن الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: الاستماع -مع الإصغاء- إلى أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم حين تُذْكَر.

وإذا تخاصمت مع إنسان في مسألة علمية واختلفت أقوالكما فإذا بالخصم يأتيك بحديث شريف ويقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .... فيجب عليك حينئذ الكف عن الخصام، والسمع والإصغاء -مع القبول والانقياد- لحديثه الشريف صلى الله عليه وسلم، وإلا كنت كمن يُعرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلّمه، لأن الحديث حديثه والكلام كلامه صلى الله عليه وسلم.

وقد بيّن سبحانه أن التزام الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صاحبه في المقامات العالية حتى ينال المغفرة العامة والأجر العظيم عند الله تعالى فقال جل وعلا: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾**.

[1] صحيح البخاري كتاب الجنائز واللفظ له وصحيح مسلم في المقدمة ومسند الإمام أحمد ١٧٤٩٢

[2] صحيح البخاري كتاب العلم

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ صلى الله عليه وسلم: أي معه وبحضرته صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن للعنديّة المحمدية أحكامها وفضائلها[1].

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن التزام الأدب معه وبحضرته صلى الله عليه وسلم هو التزام للأدب مع الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أشار سبحانه لعلو رتبتهم، لأن كلمة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في اللغة تستعمل للإشارة للبعيد: إما بَعيد المكان أو بَعيد الرتبة.

قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ فشهد الله لهم بالتقوى الخالصة.

ومعنى ﴿ٱمْتَحَنَ﴾: مِن: (مَحَنَ) يقال: (مَحَنْتُ الأديم) أي الجلد، وهو مدُّ الجلد وتوسيعه بعد دبغه.

فقوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ أي مددها ووسّعها للتقوى، فصاروا في التقوى عظماء ، لأنهم تأدبوا مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ قال بعض المفسرين: ﴿ٱمْتَحَنَ﴾ من: (محنت الذهب) و(امتحنت الذهب) إذا أدخلتَه في النار بعد وضعه في البودقة حتى تستخرج الذهب الخالص وتنفي عنه الشوائب الأخرى، ويسمى الذهب الخالص: (إبريزاً)، فقولك: (امتحنت الذهب) إذا ميزت إبريز الذهب عن الخبث[2].

---

[1] وانظر تفصيل ذلك في كتاب (حول تفسير سورة الحجرات) للشيخ الإمام رضي الله عنه

[2] انظر تفسير القرطبي عند كلامه حول هذه الآية الكريمة

فهؤلاء الذين التزموا جانب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر سبحانه بأنه استخلص قلوبهم للتقوى، ونالوا حقيقة وإبريز التقوى بحيث لم يبق في قلوبهم أمراض أو رعونات.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ وهذا التنكير يقتضي التعميم، أي فالمغفرة الإلهية لهم تأتي على جميع ذنوبهم، وهي أيضاً مغفرة عظيمة كبيرة لها شأنها عند الله تعالى لأن التنكير أيضاً يدل على التفخيم والتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي أجر عظيم جداً لأن تنكير كلمة ﴿أَجۡرٌ﴾ يدل على التعظيم، ووصفه أيضاً بالعظمة فهو أجر عظيم لا يعلم قدره إلا الله تعالى.

وإن الآية تدل على أن ميزان التقوى هو التأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وقلباً وحالاً وعملاً، ويكون مقام المؤمن في التقوى على حسب التزامه الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الغض من الصوت يعتبر من آداب المؤمنين العامة فيما بينهم لقوله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾، لكن الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الأمر فيه بغض الصوت، لا بالغض من الصوت، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي يغضون أصواتهم غضاً كلياً، أما مع الناس فالغض منه هو المطلوب، فافهم الفرق بين الأمرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أخرج ابن راهويه ومسدّد وأبو يعلى والطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم بسند حسن عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: [اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نَعِشْ بجناحه، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا فجاؤوا إلى حجراته] -وكان وقت مجيئهم وقت القيلولة أي منتصف النهار، وكان صلى الله عليه وسلم قائلاً في حجرة إحدى زوجاته الطاهرات رضي الله عنهن- [فجعلوا ينادونه: (يا محمد)، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني، وجعل يقول : لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك][١]. ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[١] انظر (الدر المنثور) للحافظ السيوطي رضي الله عنه

المحاضرة الثالثة

حول تفسير قوله تعالى في سورة مريم

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. آمين

يذكر سبحانه في هذه السورة قصة سيدنا زكريا وابنه سيدنا يحيى عليهما الصلاة والسلام.

وتقدم الكلام كيف أن سيدنا زكريا عليه السلام دعا ربه سبحانه وسأله الولد، وأجابه سبحانه وبشّره ليشكر اللهَ على هذه النعمة.

وبعد أن وُلد يحيى عليه السلام وبلغ الصبا ذكر سبحانه فضله عليه فقال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ أي: خذ التوراة بقوة، وذلك لأن الله تعالى أمر جميع أنبياء بني إسرائيل -بعد موسى عليه السلام- أمرهم أن يعملوا بأحكام التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ أي : اعمل بالتوراة بجد واجتهاد .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ الحكم هو السَّداد والإصابة في القول والعمل، فقد جعل سبحانه أقوال سيدنا يحيى عليه السلام سديدة وأعماله صائبة منذ صغر سنه، وقيل: إن ذلك كان لما بلغ من العمر ثلاث سنوات.

وأما ما قيل: (إن الحكم هو النبوة) فليس هذا القول صحيحاً.

ولقد سدد سبحانه أقوال أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وصوّب أعمالهم فحفظهم وعصمهم قبل النبوة وبعد النبوة، ومن ذلك امتنّ سبحانه على يحيى عليه السلام بهذا المقام .

وقال سبحانه في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: آتيناه رشده منذ صِغَرِ سِنِّهِ وقبل أن نُنَبّئه فكانت أقواله وأفعاله على السداد والصواب منذ صِغَرِ سِنِّهِ عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ذكر سبحانه فضله على سيدنا موسى عليه السلام فقال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: آتيناه سداداً في القول والعمل.

وهذا ما ذكره سبحانه عن سيدنا يوسف عليه السلام فقال عز من قائل:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وإن أعظم نبي آتاه الله تعالى السداد في القول والعمل والرشاد هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: بل هو على الهداية والرشاد منذ صِغَرِ سِنِّهِ الشريف صلى الله عليه وسلم، وهذا باعتراف قومه الذين نشأ صلى الله عليه وسلم بيْنهم.

وهذا من حكمة قوله تعالى: ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ أي: يا معشر قريش، فهو صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين، المعروف والمشهور بينكم بذلك، وأنتم أعرف الناس بحاله ونشأته الطيبة الكريمة صلى الله عليه وسلم .

والضلال يقابله الهدى، والغواية يقابلها الرشاد، فيقال: (فلان غاوٍ)، و(فلان راشد ورشيد) .

فهو سبحانه يذكّر معشر العرب أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى -وذلك باعترافهم وإقرارهم- فلم يعثروا له على زلّة حتى ينسبوه إلى الضلال، بل كان صلى الله عليه وسلم دائماً على الهدى والرشاد في أقواله وأفعاله وأخلاقه العظيمة صلى الله عليه وسلم.

ولو أن كفار قريش كانوا قد رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم زلة منذ صِغَرِ سِنِّهِ الشريف لجعلوها حجة عليه عند كِبَرِه بعد الرسالة، لكنهم لم يروا منه صلى الله عليه وسلم إلا الصدق والأمانة والعفة والنزاهة.

وقد ذكّرهم سبحانه بذلك ليعترفوا ويقرّوا ولا ينكروا عليه صلى الله عليه وسلم نبوّته ورسالته لمّا نبأه الله تعالى وأرسله فيهم وللناس كافة، بل إنّ مِن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ويسلّموا له فيما جاء به صلى الله عليه وسلم لأنهم يشهدون بصدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي : وآتيناه حناناً من لدنّا، فالله تعالى يحنّ عليه حناناً خاصاً، وهو يحنّ على خلق الله تعالى أي: يعطف عليهم ويشفق عليهم.

والحَنَان في اللغة يطلق على: العطف، ومن ذلك اسمه تعالى:

[الحنّان] أي : العَطوف، يعطف جل جلاله على خلقه أي : يرأف بهم.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي : أعطيناه محبة من لدنّا، فحبّبه الله إلى عباده بحيث يحبه كل من سمع به أو رآه، فهو سبحانه أحبّه وحبّب فيه عباده، وهذا مقام خاص يقتضي تحبيب الله تعالى العِبادَ في فلان محبة خالصة -لا لغرض أو غاية دنيوية أو شخصية أو نفسية- وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [المِقَة من الله، والصيت في السماء][1] والمقة هي : المحبة، والصيت هو : الشهرة والسمعة الحسنة.

[1] المعجم الكبير للطبراني ومسند الروياني وأصله في المسند ٢١٢٤٠

وإن أعظم حبيب ومحبوب تعلّقت به النفوس وتعشقت به القلوب هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال:

[ألا وأنا حبيب الله، ولا فخر][1].

وإن كل صاحب قلب إذا سمع بخصاله وبشمائله وأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم لابد أن يحبه ويتعلق به صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم مجمع المحاسن والكمال والجمال، والتي إليها ترجع أسباب المحبة كلها.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ أي: وآتيناه من لدنّا زكاة نفس أي: طهارة نفس، والزكاة تدل على أمرين : الطهارة والنماء، ومن ذلك: (زكاة المال) أي : طُهرة للمال ونماء فيه وبركة، فمن زكّى ماله طهّره ونمّاه كما قال صلى الله عليه وسلم: [ما نقص مال عبد من صدقة] [2] فهو سبحانه يبارك في المال المُزَكّى.

وإن محاذير ترك زكاة المال كثيرة خطيرة في الدنيا -قبل عذاب الآخرة- منها: أن المقت والكآبة والغمّ يعتري مانع الزكاة، ويسري ذلك على أهل بيته فيضيق عليهم ويشعرون بالوحشة والظلمة، وتشتد سكرات الموت على مانع الزكاة، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليزكّي ماله الذي شقي في جمعه وهو يفارقه عند الموت، وما أشد ألم مفارقة المحبوب وأقساه على النفس!

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

---

[1] سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

[2] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الزهد

ثم يتمثّل له ماله بصورة ثعبان كبير يلتف حول عنقه ويلدغه طيلة الموقف[1]ويتمثل أيضاً له على هيئة السبائك فتُحمى في جهنم ويُكوى بها ظهره وجنبه وجبهته[2].

ومن جملة محاذير ترك الزكاة: أن فقراء الزمان يجتمعون كلهم على من منعهم الزكاة، فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون : ربنا، ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لَأُدْنِيَنّكُم ولَأُباعِدَنّهُم.

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ**﴾][3].

وهذا قوله تعالى: ﴿**وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ**﴾.

وهذا قوله تعالى: ﴿**وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ**﴾.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا يحيى عليه السلام طهارة نفس وطيب نفس مع نموها في الخير والبركة.

وصاحب النفس الزكية هو الذي طهّر نفسه من الدنس والرجس وطيّبها بالخيرات والفضائل حتى صارت نفسه قُدسيّة عُلويّة لا يصدر منها إلا الخير.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الزكاة

[2] كما في سنن أبي داود كتاب الزكاة والمسند ٧٢٤٧

[3] انظر المعجم الأوسط للطبراني، وقال عنه الإمام المنذري في الترغيب :
رواه الطبراني في الصغير والأوسط وأبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب كلاهما من رواية الحارث بن النعمان.

واعلم أنه لا يدخل الجنة إلا صاحب النفس الزكية الذي زكّى نفسه بما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

ومن لم تَزْكُ نفسه في الدنيا فلابد أن يلاقي من أهوال البرزخ حتى يطْهر ويطيب، فإذا كانت ذنوبه كثيرة مستحكمة فيه فلابد له من دخول جهنم لمدة يطْهر فيها، فإذا طهر وطاب أُذن له بدخول الجنة، لأن الجنة لا يدخلها إلا مؤمن طاهر طيب كما قال تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وأعظم سبب يتعاطاه الإنسان المؤمن لتزكية نفسه هو أن يكون دوماً على مراقبة لله تعالى كما في الحديث حين سأل الصحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وسلم: أن يعلم أن الله معه حيثما كان][1] أي: أن تعلم علماً حقيقياً واقعياً -وهو علم يقين لا يقبل الاضطراب والشك- أن تعلم أن الله تعالى مطّلع عليك ويراك في جميع أحوالك ولا يخفى عليه منك شيء، وبهذه المراقبة يتمكن الإنسان من تقوى المعاصي والذنوب حياء من الله تعالى أن يُعصى على مرأى ومشهد ومسمع منه سبحانه.

وتحمله المراقبة أيضاً على النهوض إلى الطاعات والقُرُبات طلباً لمرضاة الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فمَن راقب هذه المعيّة استحيا من الله وخاف من الله جل جلاله.

ومِن مراقبة العبدِ ربه جل وعلا: أن يفكر الإنسان في كل كلمة ينطق بها لسانه: هل هي خير، وفيها نفع وفائدة؟ أم هي شر، وفيها الضرر والفساد؟

[1] طرف حديث رواه الإمام البخاري في التاريخ الكبير والطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشُّعَب وأبو نعيم في معرفة الصحابة

ومِن مراقبة العبدِ ربَّه جل وعلا أيضاً: أن يعلم أن الله تعالى مطّلع عليه ظاهراً وباطناً، وهو سبحانه يعلم ضمائر الصامتين، فإذا جلس الإنسان يفكّر فهو سبحانه يعلم ما يجول في فكره من أمور، فقد يعيب العبد في فكره على فلان ويزدري فلاناً وينتقص فلاناً ويسيء الظن بفلان وهكذا...

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ أي: فاحذروا غضب الله وعذابه وذلك بتجنب الظن السيء وتجنبِ أن يضمر أحدكم في نفسه الشر والفساد، فإن الله تعالى يعلم ذلك كله وهو سبحانه شهيد عليه.

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ﴾ فيه ثناء من الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام، وفيه بيان أن مقام تزكية النفس من أعالي المقامات.

وقد علّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّته دعاء حتى يستعينوا بالله تعالى على تزكية نفوسهم ففي الحديث:

[اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها، أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها][1].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: كان سيدنا يحيى عليه السلام متمسكاً بأوامر الله تعالى، منتهياً عما نهى الله تعالى، وقد وصفه الله تعالى بالتقوى ليبيّن أنه كان على مقام كبير في التقوى.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أي : كثير البر والإحسان لوالديه في الفعل والقول والحال.

﴿وَلَمۡ يَكُن﴾ أي: لم يكن مع الناس ولا مع والديه ﴿جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ بل كان متواضعاً ليناً، وفي هذا مدح لأهل التواضع، وأن التواضع مع المؤمنين قُربة إلى الله تعالى.

[1] صحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

قوله تعالى: ﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾ وفي هذه الآية يسلّم الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام، ورتّب السلام عليه على ثلاث مراحل: يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه.

وقد خصص سبحانه السلام على سيدنا يحيى عليه السلام في هذه الأيام الثلاثة لأن في كل منها دخولاً إلى عالم جديد، ويعتري الداخلَ وحشة ومهابة إذا لم يتداركه الله برحمته ومؤانسته.

وقال بعض السلف: (ما أَوحش الإنسانَ في هذه الأيام الثلاثة إذا لم تتداركه رحمة الله تعالى)[1].

فالإنسان لما يولَد ينفصل عن رحم أمه ويدخل عالم الدنيا وتعتريه الوحشة لأنه كان في عالم محدود مقيد بإحساسه ومداركه، فإذا انتقل إلى عالم الدنيا انطلق إلى عالم كبير يشعر فيه بالوحشة والدهشة فتراه يلتفت ويبكي تعبيراً عن ذلك، وكذلك لما يموت ويدخل عالم البرزخ ويفارق أهله وأصحابه ويتعرف إلى أناس لم يكن يعرفهم من قبل .

وعالم البرزخ عالم كبير أوسع من عالم الدنيا، وما نسبة عالم الدنيا إلى عالم البرزخ إلا كنسبة عالم الرحم إلى عالم الدنيا فتفكّر في ذلك.

نعم يعتري من ينتقل إلى البرزخ بالموت الدهشةُ والوحشة إلا من آنسه الله تعالى بأمانه وسلامه.

---

[1] جاء في تفسير ابن كثير ١٩٣/٥: قَالَ سُفْيَانُ بن عيينة:
أوحشُ ما يكون المرء فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ، قَالَ: فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ، فقال تعالى: ﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾.

واعلم أن المؤمن الذي ينتقل إلى البرزخ ولا ذنْب عليه فإنه يصير في عالم كبير يطّلع فيه على أحكام الآخرة وعوالمها وعلى عالم الدنيا وما سيجري عليها، أما المجرم أو المذنب الذي مات ولم يتب فيبقى مقيداً مشغولاً بنفسه وكُرُباته وآلامه كالمريض الذي شغله المرض والألم عن الالتفات إلى غيره.

أما يوم الحشر -يوم يبعث الله الخلائق من عالم القبور إلى عالم المحشر- فيصيب الإنسانَ في ذلك اليوم وحشة وكربة شديدة لأن أهوال المحشر وكرباته شديدة عظيمة إلا من أظلّه الله بظلّه وعناه بأمنه وسلامه.

ومن هذا كله تفهم سر تسليم الله تعالى على سيدنا يحيى عليه السلام في تلك الأيام، قال تعالى: ﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾.

ولما قال الله تعالى:﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ**﴾ يعني: سلام مستمر عليه إلى أن يموت، فيشمل ذلك السلام أيام الدنيا كلها التي يعيشها يحيى عليه السلام، وكذلك السلام الثاني في قوله تعالى: ﴿**وَيَوۡمَ يَمُوتُ**﴾ يعني من موته إلى يوم بعثه في المحشر، وكذلك السلام الثالث في قوله تعالى: ﴿**وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾ أي إلى أبد الآبدين، فهو في سلام الله وأمانه.

وقوله تعالى: ﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ**﴾ أي: سلام من الله خاص لسيدنا يحيى عليه السلام يليق بمقام سيدنا يحيى عليه السلام.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن تسليم الله تعالى على عباده على مراتب:

فهناك السلام العام على جميع المؤمنين والمؤمنات كما في قوله تعالى: ﴿**قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ**﴾.

فقوله تعالى : ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي: مِن المؤمنين مِن ذرية مَن معك مِن أولادك الذين ركبوا السفينة معك.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي : وأمم أخرى كافرة لا حَظَّ لهم من سلام الله، بل سيمتّعهم الله في الدنيا ثم يُردّون إلى عذاب الآخرة، فما من مؤمن ولا مؤمنة إلى يوم القيامة إلا ونالهم السلام من الله تعالى، فقد سلّم الله تعالى على كل مؤمن ومؤمنة وبارك عليهم بقوله جل وعلا: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ فهناك البركات في الإيمان، والبركات في الأعمال فينمّيها جل وعلا ويضاعف أجرها، وهناك البركات في الأرزاق وفي كل شيء فيه نفع للمؤمنين، ولا يخلو أيّ مؤمن من بركات الله تعالى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب مِن مَشْرب الناس يرجو بركة المسلمين[1] يعني: وإن بركة المسلمين من بركة الله تعالى كما تقدم، فما أعظم بصره وبصيرته صلى الله عليه وسلم!

فكان صلى الله عليه وسلم يلاحظ بركة الله تعالى التي شملت كل مؤمن ومؤمنة -مع أنه صلى الله عليه وسلم مهبط الخير والبركة ومنبع العلم والحكمة- وفي هذا تواضع منه صلى الله عليه وسلم وتعليم للأمة.

وهناك سلام الله تعالى الخاص بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فلقد سلّم الله تعالى على سيدنا نوح عليه السلام فقال جل وعلا :

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

[1] روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في شُعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إلى المَطَاهر فيؤتى بالماء فيشربه يرجو بركة أيدي المسلمين) .اهـ
وقال عنه في مجمع الزوائد: ورجاله موثّقون.
و(المطاهر): جمع (مِطهرة) بكسر الميم: كل إناء يُتطهر منه، والمراد منه هنا: البرك المُعدَّة للوضوء ونحوها. اهـ انظر فيض القدير ٢٥٣/٥

وسلّم سبحانه على سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال جل وعز:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

وسلّم سبحانه على سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام، قال تعالى:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ومن ذلك: السلام على سيدنا يحيى عليه السلام، قال جل وعلا:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

وأخبر الله تعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قوله:

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

والمعنى: والسلام من الله تعالى عَلَيَّ، وإلا فلا أحد يسلِّم على نفسه من نفسه.

وتدبّر قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ في حق يحيى عليه السلام، وقوله تعالى مخبراً عن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ فقد سلَّم الله تعالى على يحيى عليه السلام لأنه كان في مقام الهيبة والجلال فلم يسلّم سيدنا يحيى على نفسه كما فعل سيدنا عيسى عليه السلام لأن عيسى عليه السلام كان في مقام البسط والجمال.

ولقد كان يحيى عليه السلام كثير الحزن والخوف والبكاء، أما عيسى عليه السلام فكان كثير التبسم والسرور بمقتضى الجمال والبسط.

روى أبو نعيم وابن عساكر وغيرهما عن مكحول رحمه الله قال:

(التقى يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام، فضحك عيسى في وجه يحيى وصافحه، فقال له يحيى : يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمِنت؟ -أي : كأنك قد أمنت مكر الله تعالى.

فقال له عيسى: يا ابن خالتي ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست؟)[١] -أي: كأنك قد يئست من رحمة الله تعالى- فكان كل منهما يتكلم بمقتضى المقام الذي أقامه الله تعالى فيه.

ولا يجوز لأحد أن يفاضل بينهما من تلقاء نفسه، ولا يجوز له أن يفاضل بين الأنبياء عليهم السلام إلا فيما ورد بنص شرعي.

وأفضل الأنبياء على الإطلاق وأكرمهم على الله جل جلاله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: [أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر][٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: [أنا سيد ولد آدم][٣]وغير ذلك من الأحاديث الشريفة.

وقال سيدنا عيسى مرةً لسيدنا يحيى عليهما السلام: (ادع الله لي فإن الله تعالى سلّم عليك فأنت خير مِنّي) فقال له سيدنا يحيى عليه السلام: (بل أنت ادع الله لي فقد سلّمت على نفسك مِن جانب الله تعالى)[٤].

وقد ذكر الله سبحانه أفضل الأنبياء وهم أولو العزم من الرسل بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ...الآية .

وأفضلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويليه في الفضل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ومما يُذكر عن يحيى عليه السلام أنه لما كان صغيراً مر يوماً على نار موقدة فبكى، فقالت له أمه: ما يبكيك وأنت صغير؟ -أي: لا ذنْب عليك-

فقال لها: يا أمّاه أرى أنهم يوقدون الكبار بالصغار!

---

[١] انظر حلية الأولياء لأبي نعيم والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ دمشق لابن عساكر

[٢] سنن الترمذي كتاب المناقب

[٣] صحيح مسلم كتاب الفضائل وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[٤] انظر تفسير القرطبي عند كلامه حول قوله تعالى: **﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾**

يعني أنه فكر واعتبر فيما رأى فخاف من ذلك لأنه رأى أن الإنسان عندما يوقِد ناراً يأتي بالحطبة الصغيرة أولاً فيوقدها ليشتعل فيها الحطب الكبير الحجم وهكذا.

وفي هذا عبرة لأولي الألباب فكم من كبار حُرقوا بسبب الصغار، وكم من آباء حُرقوا بسبب أبنائهم، فترى الولد ينشأ كافراً أو فاجراً أو فاسقاً بسبب إهمال والده له فيحاسبه الله تعالى على ذلك ويعذبه بذلك.

وقد ترى الوالد يرسل ولده للدراسة بين الجاحدين فيتأثر بأفكارهم وإلحادهم فيعود إلى والديه مسفِّهاً لهم محتقراً عباداتهم، حتى يجادلهم في ذلك وأنهم على ضلال وتخلف، فربما تأثر به والده -زعماً منه أن ابنه درس وصار مثقفاً- فيترك عبادته وقد يخرج عن دينه بسبب ولده، فيحترق الكبير بسبب الصغير.

نسأل الله تعالى العافية والسلامة. آمين

فعلى الوالد أن يعلّم أولاده أمور دينهم، ويحملهم على التزام أوامر الله تعالى وترك المعاصي.. حتى إذا بلغ أحدهم سن البلوغ وراح يتنكر لذلك ويتفلت عن أمور دينه فلا مسؤولية عندها على الوالد طالما أنه لم يهمل تربية أولاده قبل البلوغ.

قوله تعالى : ﴿**وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾.

إن جميع الأموات يبعثهم الله تعالى أحياء يوم القيامة فلِمَ ذكر سبحانه عن يحيى عليه السلام: ﴿**وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا**﴾؟

نعم ليشير بذلك إلى الحياة الخاصة اللائقة بسيدنا يحيى عليه السلام صاحب المقام اليحياوي الذي يذبح كبش الموت على السور بين الجنة والنار[١] كما في بعض الآثار.

---

[١] قال الإمام ابن حجر في الفتح: نقل القرطبي عن بعض الصوفية أن الذي يذبحه -أي يذبح الموت- هو يحيى بن زكريا عليهما السلام بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، إشارة إلى دوام الحياة. اهـ ١٨/٣٩٧

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يؤتى بالموت كهيئة كبش أَمْلَح فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا ؟

فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه.

ثم ينادي مناد: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه.

فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت][١].

فإن يحيى عليه السلام يذبح (يموت)[٢] فلا يبقى موت، بل صار أهل الجنة في خلود ونعيم دائم، وكذلك أهل النار في خلود وشقاء دائم.

فلقد تمثَّل الموت بصورة كبش أملح[٣] وذُبح هذا الكبش فمات الموت، والموت أمر وجودي كما أن الحياة أمر وجودي، قال تعالى في ذلك:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

[٢] أي: يذبح الموت

[٣] قال ابن الأثير في (النهاية): هو الذي بياضه أكثر من سواده.
وقيل: هو النقي البياض، وقال في القاموس: الملحة بياض يخالطه سواد، يقال: كبش أملح ونعجة ملحاء.
وقال الحافظ في الفتح: هو الذي فيه سواد وبياض، والبياض أكثر.

المحاضرة الرابعة: حول معاني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

وتفسير سورة الإخلاص

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما معنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو: (لا معبودَ حقاً يُعبد ويجب أن يُعبَد إلّا الله جل وعلا).

فالله تعالى هو الإله المعبود حقاً، وهذا معنى كلمة: (الإله) أي: المعبود.

أما معنى اسم: ﴿ٱللَّهُ﴾ فهو اسم يدل على ذات الله جل جلاله، المتصفة بجميع صفات الكمال، والمنزَّهة عن جميع الآفات والنقصان.

وهذا الاسم الكريم هو أجمع الأسماء الإلهية، وإن جميع الأسماء الإلهية الكريمة داخلة في دائرة اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، ولذلك يقال له: (اسم الجلالة) -أي: مهما عرفت من الأسماء التي يحويها هذا الاسم فهذا الاسم هو في جلالته أجل وأعلى، وإن جميع الأسماء الإلهية تأتي تابعة لهذا الاسم فتقول: (الله الملك السلام المؤمن) وهكذا...

أما أسماء الله تعالى التي تدخل في دائرة اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ فلا نهاية لها، وكلها أسماء حسنى وأسماء كمال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي ليس في الأسماء الإلهية اسم ناقص أو فاسد أو سيئ؛ بل كلها حسنى تدل على الكمال، سواء قلت: [الغفّار] أو [القهّار] جل وعلا لأن القهر في مواضع القهر على من يستحق القهر هو صفة كمال، وهكذا...

ولقد ذكر سبحانه بعض أسمائه في القرآن الكريم، وأوحى بعضها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واستأثر ببعض الأسماء في علم الغيب عنده، ومنها أسماء ستظهر في العوالم الأخروية الآتية، وهناك أسماء اختص الله بعلمها ولا يمكن ظهورها.

وعلى هذا فيكون اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ اسماً يدل على ذات ﴿ٱللَّهِ﴾ جل جلاله مع صفاته وكمالاته التي لا تتناهى، ولذلك فإن أسماءه سبحانه لا نهاية لها لأنها أسماء صفات وكمالات، وكمالاته سبحانه لا تتناهى فأسماؤه جل جلاله لا تتناهى.

وقد تعرَّف سبحانه إلى عباده بأسمائه وكمالاته جل وعلا.

وهناك تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله تعالى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لها خصوصية: أن من أحصاها دخل الجنة، أما أسماؤه سبحانه فلا نهاية لها، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم:

[مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي" إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا][١].

وفي صحيح ابن حبان: ["أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي" إلا أذهب الله همّه، وأبدله مكان حزنه فرحاً.

قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟

قال صلى الله عليه وسلم: أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن][٢].

---

١ المسند ٣٥٢٨

٢ في كتاب الرقائق

وهذا الحديث يدل على أن لله تبارك وتعالى أسماءً استأثر بها سبحانه في علم الغيب عنده، فهناك أسماء إلهية لا نهاية لها.

وفي الحديث أن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها دعت بهذا الدعاء بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي] وبيّن لها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها دعت الله تعالى بالاسم الذي إذا دعي سبحانه به أجاب[1].

ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

يقال -ولله المثل الأعلى-: (هذه النبتة حسنة، وتلك النبتة حُسنى) أي أحسن من الأولى، وتقول:(هذا أمر حسن، وهذا أحسن) على وزن (أفعل وفُعلى) للتفضيل .

فلقد وصف سبحانه أسماءه بأنها ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ولم يقل: (الحسنة) لأن ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أبلغ، فأسماؤه سبحانه أحسن وأحسن على وجه لا يتناهى في الحسن.

واعلم أنه كلما ازداد علمك بأسماء الله ومعانيها زاد علمك بالله وإيمانك به جل وعلا، وزاد حبك لله سبحانه لأن الحب والقرب يكون على حسب المعرفة.

---

[1] انظر سنن ابن ماجه كتاب الدعاء

وإليك مثالاً يقرّب للعقل ذلك -لا للتشبيه والتمثيل لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي الأمثال التي فيها التشبيه والتمثيل، أما الأمثال التي تقرّب للعقول الفهم والعلم فلا بأس منها-:

إذا قيل لك: (يجب أن تحب فلاناً) دون أن تعرف شيئاً عنه لَمَا أمكنك ذلك، أما إذا وُصف لك بصفاته وأخلاقه وسجاياه فعندئذ تحبه لصفاته وخصاله.

فإذا كنت أيها العاقل تبتغي حب الله والتقرب منه سبحانه فابحث عن كمالاته وأسمائه جل جلاله وتفهّم معانيها كما عرّفك سبحانه عن صفاته وعرّفك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، إذ هو صلى الله عليه وسلم أعرَفُ العارفين بالله ومعرِّفُ العارفين بالله كما قال صلى الله عليه وسلم: [وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ][1] أي خذوا العلم والمعرفة بالله عني لأني أَعْلَمُكُمْ بالله سبحانه.

ومن جملة ما ذكره سبحانه في القرآن الكريم من أسمائه اسم: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ولم يكن أحد كفواً ومماثلاً وشبيهاً وعديلاً ونظيراً له سبحانه، فإنه جل جلاله ليس كمثله شيء .

وإن هذه السورة نزلت مرتين؛ مرة في مكة المكرمة والثانية في المدينة المنورة، إذ لما كان صلى الله عليه وسلم في مكة سأله المشركون: (صِفْ لنا ربك) -وفي رواية (أُنسب لنا ربك)- فنزل قول الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٣١٨٣

ولما هاجر إلى المدينة سألته اليهود: (صِفْ لنا ربك) -أي صِف لنا ربك الذي تدعو الناس إلى توحيده وعبادته- فنزلت أيضاً: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] .

وفي هذا تلقين الله الجواب لرسوله صلى الله عليه وسلم إذ إنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا عن وحي من الله تعالى، قال جل جلاله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾.

وقد يقال: لم قال صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولم يقل: (هو الله أحد)؟

والجواب أنه صلى الله عليه وسلم بيّن أن الله تعالى أوحى إليه أن قل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قيل له صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم كما قيل له، وحتى يبيّن أن القرآن ليس من عنده صلى الله عليه وسلم، ولو كان من عنده صلى الله عليه وسلم لقال: (هو الله أحد)، وإنما هو صلى الله عليه وسلم يتكلم عن وحي من الله ويبلّغ كما أنزل الله عليه[2].

[1] قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات بِسَنَد حسن عَن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: "صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.. إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [هَذِهِ صِفَةُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ].
وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اُنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ" فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ.. الْحَدِيثَ، وَهُوَ عِنْدَ ابن خُزَيْمَةَ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ. اهـ ١٣/٣٥٦

[2] روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: (سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنْ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:[قِيلَ لِي، فَقُلْتُ] فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وقد يقال: كان يكفي في الجواب أن يقول:(قل الله أحد) فلِمَ قال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟

فيقال: اعلم أن هذا كلام رب العالمين، ولا حشو فيه ولا هزر، فقد قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ﴾ حتى يبين أن الهُويّة الذاتية الإلهية والكُنْه الإلهي إنما هو غيب مطلق عن المخلوق، ولا يمكن أن يُدرَك أو يحاط به علماً.

فلما قال جل وعلا: ﴿قُلۡ هُوَ﴾ أي هو جل وعلا كما هو، ولا يعرف حقيقة ﴿هُوَ﴾ إلا هو جل جلاله، وذلك لأن الله تعالى لا يتناهى، والمخلوق مُتَناهٍ فكيف يتسع المتناهي لمن لا يتناهى؟

ثم إن الحق سبحانه ليس كمثله شيء فهو كما هو مِن حيثُ الكنهُ والذات. ولا تبحث أيها الإنسان عن الذات الإلهية والكنه الإلهي فقد قال سبحانه:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي احذروا أن تبحثوا عن حقيقة الله تعالى، وإنما أمرك سبحانه أن تبحث في صفاته وكمالاته فقال عز من قائل: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وقال الصّدّيق الأكبر سيدنا أبو بكر رضي الله عنه:

العجز عن درك الإدراك إدراك والبحثُ عن سِرِّ ذات الربِّ إشراك[١]

لأن من أراد أن يبحث عن حقيقة ذات الله جل وعلا فقد جعل الله كخلقه، فأشرَكَ.

---

[١] انظره في كتاب (حول تفسير سورة الإخلاص) الصفحة ٢٣ للشيخ الإمام رضي الله عنه.

يقول الله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

وتطلق الأبصار على معنيين: أبصار العيون وأبصار القلوب أي البصائر، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾- أي أبصار العيون -﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي أبصار القلوب لأنهم هم أهل الاعتبار.

فلما ذكر سبحانه أنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي لا تدركه أبصار العيون ولا أبصار القلوب، أي لا تدرك حقيقته وذاته على وجه الإحاطة به سبحانه،

-وذلك لأن الإدراك هو معرفة وتحصيل غاية الشيء ونهايته كما تقول: (أدركته) أي مشيت طويلاً ثم بلغت الغاية وحصلت عليه، وكما قال تعالى مخبراً عن أصحاب موسى عليه السلام -لما تبعهم فرعون وجنوده وأشرفوا على البحر- أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾- فلا يمكن للبصر أو البصيرة أن يدرِك الغاية والنهاية في معرفة الله سبحانه.

وهذا لا ينافي أن أهل الجنة يرون ربهم إذ إنهم يرونه جل جلاله ولكنهم لا يحيطون به بصراً كما لا يحيطون به سبحانه علماً ومعرفة.

وكما أنك -ولله المثل الأعلى- ترى السماء -وهي خلق من خلق الله- ولكنك لا تحيط بها رؤية أو معرفة، وكذلك ترى الشمس -وهي خلق من خلق الله- ولكنك لا تحيط بها رؤية ولا معرفة بحقيقتها وكنه ذاتها؛ فالله سبحانه أجلُّ من أن يُحاط به رؤية أو معرفة، قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ أي أن الله تعالى يدرك أبصار القلوب وأبصار العيون.

ويقول سبحانه في أهل الجنة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

أما رؤية الله تعالى قبل دخول الجنة وفي برازخ الآخرة فيقع هذا للأكابر كما دلت الأحاديث النبوية على أن شهداء الصحابة رأوا ربهم سبحانه في البرزخ وغير ذلك[1].

أما في عالم الدنيا فلم ير أحد ربَّه بعيني بصره إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى.

وروى البخاري في صحيحه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:

[كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ][2]أي: ظاهراً جلياً يتجلى عليكم بالرؤية بلا خفاء، وهذا التشبيه من حيث الظهور وعدم الخفاء لا من حيث الهيئة إذ ليس كمثله شيء سبحانه.

وجاء في الحديث الآخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

[قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تُضَارُّونَ] -أي تتزاحمون- [فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟

فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟

فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

---

[1] ومن ذلك ما أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابي الجليل عبد الله بن حرام رضي الله عنه لما استشهد في غزوة أحد أخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى الله جل جلاله كفاحاً - بكسر الكاف أي: من غير حجاب - كما في صحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ[1]] أي يتجلى سبحانه عليكم تجلياً ظاهراً للكل، والكل يرونه جل وعلا في الجنة، ويكون هذا التجلي العام في عالم الكثيب يوم الجمعة في وقت صلاة الجمعة كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة[2].

---

[1] المسند ١٠٤٨٥ واللفظ له وهو في صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] روى ابن ماجه والترمذي وابن حبان عن سَعِيد بْن الْمُسَيِّبِ رحمه الله تعالى ورضي عنه أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سُوقِ الْجَنَّةِ.
قَالَ سَعِيدٌ: أَوَ فِيهَا سُوقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ، وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ- عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، مَا يُرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ بِأَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا.
قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا؟
قَالَ: نَعَمْ، هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟
قُلْنَا: لَا، قَالَ: كَذَلِكَ لَا تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَاضَرَةً، حَتَّى إِنَّهُ يَقُولُ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ: أَلَا تَذْكُرُ يَا فُلَانُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ يُذَكِّرُهُ بَعْضَ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ.
فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ، ثُمَّ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ.
قَالَ: فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حفَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُر الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَع الْآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ.
قَالَ: فَيُحْمَلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا، لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الْمُرْتَفِعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ- فَيَرُوعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ لَهُ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا.
قَالَ: ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَتَلْقَانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنْ الْجَمَالِ وَالطِّيبِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ، فَنَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَحِقُّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا]=

وإنّ تجلي رب العالمين على أهل الجنة بالرؤية إنما هو زيادة فضل منه سبحانه عليهم كما جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وجاء ذلك في الحديث الشريف[1].

=وروى ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والدارقطني في الرؤية وأبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: (سَارِعُوا إِلَى الْجُمُعَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْرِزُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ إِلَى كَثِيبٍ مِنْ كَافُورٍ أَبْيَضَ، فَيَكُونُونَ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ تَسَارُعِهِمْ إِلَى الْجُمُعَاتِ فِي الدُّنْيَا).

وقال الحافظ ابن رجب في (الفتح): (أعلى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى وجه الله عز وجل مرتين بكرة وعشياً، وعموم أهل الجنة يرونه في كل جمعة في يوم المزيد). اهـ ٣٢٣/٤

وفي حديث طويل رواه الطبراني في (الأوسط) بإسنادين أحدهما جيد قوي، ورواه أبو يعلى، وابن أبي الدنيا، والبزار واللفظ له: [فإذا كان يوم الجمعة في الحين الذي يَبْرُزُ أو يخرج فيه أهل الجمعة إلى جمعتهم؛ نادى مناد: يا أهل الجنة أخرجوا إلى دار المزيد...] الحديث

وقال الحافظ النووي في شرحه صحيح مسلم: (وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَدِلَّةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَوَاهَا نَحْوٌ مِنْ عِشْرِينَ صَحَابِيًّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآيَاتُ الْقُرْآنِ فِيهَا مَشْهُورَةٌ). اهـ ١٥/٣

[1] روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ]. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.اهـ

وانظر ما ورد في ذلك في كتاب الرؤية للدارقطني وهو حديث طويل في صفة أهل الجنة جاء في آخره: [فليسوا إلى شيء أَشْوَقَ منهم إلى يوم الجمعة لينظروا إلى ربهم عز وجل، وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته]. اهـ

وفي المعجم الأوسط للطبراني: [ولذلك دُعي يوم المزيد] =

واعلم أنه لا بد للتجلي من التحلّي، فالعبد يتحلى والرب يتجلى، فلما يذهب أهل الجنة إلى عالم الكثيب يمرون على سوق كما ورد في الحديث في رواية الترمذي عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا مَا فِيهَا شِرَاءٌ وَلَا بَيْعٌ إِلَّا الصُّوَرَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ] - وهذه الصور إنما هي هيئات- [فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا][1] فَيَوَدُّ الرجل أن تكون هيئته كتلك الصورة فيصبح مثلها، وتود المرأة أن تكون هيئتها كتلك الصورة فتصير مثلها، وهكذا يتحلون بالجمال وتهب عليهم ريح الشَمال[2] التي تشمل ذراتهم وتملؤهم طيباً.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي لا يعلم حقيقة ﴿هُوَ﴾ وكُنْه ﴿هُوَ﴾ إلا ﴿هُوَ﴾ جل وعلا.

وهو سبحانه أحد بالأحدية المطلقة الحقيقية، وليس بالأحدية العددية، لأن الأحدية العددية اعتبارية؛ كما لو كان عندك ثلاثة أقلام: أحمر وأسود وأزرق وبدأت بالعد من الأزرق فتقول عنه: (واحد)، ولو بدأت بالأحمر لقلت عنه: (واحد)، فالأحدية هنا اعتبارية .

ومن ناحية ثانية فإن الواحد العددي يقبل التعدد فلو قلت: (ثلاثة) فهي واحد وواحد وواحد، أما الواحد الحقيقي بالوحدة المطلقة -وهي التي اختص الله بها- فلا يقْبل التعدد.

= وانظره في مسند البزار ومسند الحارث وصفة الجنة لابن أبي الدنيا وقال في مجمع الزوائد: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.
وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء:
حديث: [خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخِل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسميه الملائكة في السماء، وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة] أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

[1] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة

[2] روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا] ... الحديث

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ] -أي لا سيما في آخر الزمن بدعوى العلم والفهم- [حَتَّى يُقَالَ هَذَا: خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟] -وفي رواية:[لَا يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟[1]]- [فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ][2].

وفي رواية عند الإمام أحمد: [إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟

فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ:"آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" فَإِنَّ ذَلِكَ يذْهبُ عَنْهُ][3].

وفي رواية لأبي داود: [فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا: ﴿**ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ**﴾، ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ][4].

وهذا جواب نبوي محكَم يُفحم العقول ويرد الشبهة والشك.

والمعنى: اعلمْ أن الله أحد، وقبْل الأحد لا أحد، وإذا أشْكل عليك الأمر فيقال: إن الواحد العددي ليس قبله أحد إذ إنك تبتدئ العَدَّ مِن الواحد، فما بالك -ولله المثل الأعلى- ما بالك بالواحد الحقيقي المطلق الذي هو الله جل وعلا ؟!

والله سبحانه خالق لجميع الأشياء، والخالق لا يحتاج إلى من يخلقه، إذ إن وجود الخالق من نفسه وذاتيّ له.

وليس اعتراضك سؤالاً يحتاج إلى الجدال.

قوله تعالى ﴿**ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ**﴾: أي الغني عن كل ما سواه، المفتقِر إليه كلُّ ما عداه.

---

[1] مسند الإمام أحمد ٩١٩٩

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[3] المسند ٢٥٠٠٦

[4] سنن أبي داود كتاب السنة

وهذا معنى: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في كل الأمور، على وزن (فَعَلْ) أي (مفعول) فالصمد هو المصمود له أي المقصود في جميع الأمور .

وما تجده من تفاسير لمعنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ إنما هو بيان لبعض معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

وتقول العرب: (صمدنا إلى فلان)[1] إذا قصدناه في أمر ولا يُقضى هذا الأمر إلا عنده، فالصمد الحقيقي هو الله سبحانه الغني بذاته عن كل ما سواه، والمفتقِر إليه كلٌّ ما عداه.

وإن جميع المخلوقات مفتقرة إلى الله على الدوام، وتسأله سبحانه دائماً أن يُمدها بالوجود ويمدها بما يُبقي عليها وجودها، فجميع المخلوقات تسأل الله تعالى دائماً -سؤالاً حقيقياً ذاتياً- تسأل الله أن يُمِدَّها، وهذا معنى قوله جل وعلا: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي كل يوم شأني: وهو أقل من لمح البصر ، وهو أدق من أن يدخل تحت التعيين الزمني.

فكل ذرةٍ في الكائنات تسأل الله تعالى -في كل لحظة أو لمحة بصر بل أقل من ذلك- تسأل الله تعالى أن يُمِدَّها، ولو قطع سبحانه إمداده لِذرّاتِ العوالم لعُدمت وتلاشت.

ومن هنا تفهم افتقار العوالم كل الفقر إلى ربها ﴿ٱلصَّمَد﴾ جل وعلا.

ولما كان اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يعني: المقصود في الحوائج كلها، والمسؤول في المهمات: ورد أن قراءة هذه السورة تفرِّج المهمّات وتيسّر الأمور وتدرّ الرزق، وفيها الحفظ من الشرور ومكايد الشيطان، وفيها معنى الاستعاذة؛ لذلك كانت هي من جملة المعوِّذات.

فمن قرأها أعاذه الله بها - بمعنى حفظه وصانه مما يكره-.

---

[1] انظر (لسان العرب): مادة (صمد)

وورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن خبيب رضي الله عنه: [قُلْ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ][١].

وجاء في المعجم الكبير للطبراني: [مَنْ قَرَأَ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حِينَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ نَفَتِ الْفَقْرَ عَنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَالْجِيرانِ] وذلك لأن فيها اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

وجاء أن من دخل منزله فليقرأ سورة الفاتحة، وينبغي على المؤمن أن يقرأ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص إذا دخل بيته عملاً بذلك.

وقال أهل الله رضي الله عنهم: (من كان له حاجة فليواظب على قول: (يا صمد) مائة وخمساً وعشرين مرة في وقت السَّحَر.

وإن من قرأ سورة الإخلاص كمن قرأ ثلث القرآن الكريم، وله ثواب ذلك إجمالاً كما في المسند عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

[أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟ قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالُوا: مَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَقْرَأُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَهِيَ ثُلُثُ الْقُرْآنِ][٢].

وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [احْشُدُوا] -أي اجتمِعوا- [فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ].

قَالَ: فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ] إِنِّي لَأَرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ.

---

[١] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[٢] ١٠٦٣١ بهذا اللفظ وهو في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن بلفظ قريب

ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: [إِنِّي قُلْتُ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ].

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: [مَنْ قَرَأَ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَنْ نسْتَكْثِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ] -أي نستكثر من قراءتها- [فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ][1] أي: إن أنتم أكثرتم أكثر الله لكم الأُجور والقصور.

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة لأنها سورة التوحيد أي توحيد الله لنفسه، فافهم.

ومما جاء في فضلها قوله صلى الله عليه وسلم:

[مَنْ قَرَأَ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ خَمْسِينَ مَرَّةً غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَ خَمْسِينَ سَنَةً][2].

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ:

[يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾] -أي هو دائماً يقرؤها- [فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ حُبَّكَ إِيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ][3].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] المسند ١٥٠٥٧

[2] سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن عن أنس بن مالك رضي الله عنه

[3] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

المحاضرة الخامسة:

حول تتمة البحث في تفسير سورة الإخلاص

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿**قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**هُوَ**﴾: اسم من أسماء الله تعالى يدل على الغيب المطلق؛

إذ لا يعلم حقيقة ﴿**هُوَ**﴾ إلّا ﴿**هُوَ**﴾ جل وعلا.

أما المخلوق فلا يحيط علماً بكنه الله وذاته كما قال عز من قائل:

﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ**﴾ أي بـ ﴿**هُوَ**﴾ ﴿**عِلۡمًا**﴾، وإنما يعرف المخلوق ربه على حسب ما علَّمه سبحانه من أسمائه وصفاته في القرآن الكريم وعلى لسان سيد الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فقوله تعالى: ﴿**قُلۡ هُوَ**﴾ يدل على الذات الإلهية وعلى الكنه الإلهي، وأما الاسم الذي يدل على الذات الإلهية فقد قال عز من قائل: ﴿**قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ**﴾ فأتى باسم ﴿**ٱللَّهُ**﴾ وهو الاسم الدال على ذات الله تعالى المتصفة بالكمالات اللائقة به سبحانه.

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: (سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ صلى الله عليه وسلم:
[قِيلَ لِي، فَقُلْتُ]، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ فهو سبحانه واحد بالوحدة الذاتية الحقيقية المطلقة، وليس بالوحدة العددية كما تقدم بيان ذلك .

فهو سبحانه وَحْدَهُ الأحد الذي لا يقبل التعدد، ولا إله غيره لأنه لا انتهاء له في قدرته وعلمه.

وما الحكمة والفائدة من إله آخر أو أكثر؟

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: وفي هذا دليل قاطع على وجود الله سبحانه وذلك لأن آثار اسم ﴿ٱلصَّمَد﴾ مشهودة بالعيان لكل إنسان عاقل، ولا يمكن لعاقل أن ينكر وجود الله تعالى إذ إنه يرى آثار اسم ﴿ٱلصَّمَد﴾ تسري في الكائنات.

و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو المقصود في جميع الأمور والحاجات كما يقال في لغة العرب: (صمدنا إلى فلان) أي: قصدناه في حاجاتنا .

فـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو المصمود له والمصمود إليه أي: المقصود، ومَن كان مقصوداً في جميع الأمور كان غنياً بالغنى المطْلَق عما سواه، وكل ما عداه مفتقِر إليه، فالعوالم كلها صامدة إلى الله تعالى في حاجاتها ومهماتها كلها، وهي مفتقرة إلى الله تبارك وتعالى في كل شيء.

وبمقتضى هذا الاسم -﴿ٱلصَّمَدُ﴾- سدّد سبحانه حاجات المخلوقات المتوقف عليها وجودها واستمرار بقائها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقد ذكر هذا سبحانه بعد قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾

ثم قال جل وعلا: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ حتى يبين أنه سبحانه قد أعطاكم من كل ما سألتموه حالاً وحقيقة.

وإن سؤال العبدِ اللهَ تعالى قد يطلق على:

معنى الدعاء -وهو أن تدعو الله في أمورك وحاجاتك الخاصة-، وعلى سؤال الحالِ والحقيقةِ -وهو أن ذاتك وحقيقتك تسأل الله أن يمدها بالوجود-.

وما من ذرة فيك إلا تسأل الله أن يمدها بالوجود في كل لحظة؛ بل في أقل من لحظة.

ولتوضيح ذلك يُقال لك: هل أنت دعوت الله -بلسانك- أن يخلق لك الشمس التي فيها مصالحك؟

وهل سألته جل جلاله أن يسخّر لك القمر والليل والنهار؟

وجوابك: حتماً أنك لم تسأل الله تعالى ذلك.

فما معنى قوله جل جلاله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ إذاً؟

إذاً قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ أي: وآتاكم من كل ما سألتموه بحقائقكم وذواتكم وذراتكم التي طلبت من الله تعالى بلسان حالها أن يمدها بالوجود والحياة فسخر سبحانه لك الشمس والقمر والليل والنهار لأنك محتاج إليها في حياتك ووجودك.

فالسؤال المذكور في الآية:

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ إنما هو سؤال الحال والحاجة، لا سؤال الدعاء باللسان، بدليل قوله سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ -أي نعمة الله عليكم وما سخّر لكم- ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾.

ومن ناحية ثانية: قد يسأل الإنسان ربه لحاجات خاصة فلا يجيبه الله بها في الدنيا وإنما يؤخرها له إلى الآخرة؛ والحال أن الآية تقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ لذلك فالسؤال المذكور في هذه الآية هو سؤال الفقر والحاجة الذاتية بلسان الحال.

وإن هذا الإعداد والإمداد والعطاء لتسديد حاجات المخلوقات إنما هو من حضرة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المقصود في جميع الحاجات تبارك وتعالى.

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: أنتم الفقراء بذواتكم وحقائقكم ووجودكم، وكلُّ ذرة فيكم فقيرة إلى الله تعالى أن يمدها بالوجود والحياة والهواء والغذاء، والله هو الغني بذاته ووجودِه جل وعلا، والعالم كله مفتقر إلى الله ومحتاج إليه سبحانه وتعالى في كل لحظة أن يمدّه بقوله جل وعز: ﴿كُن﴾ ﴿كُن﴾ ...

ولا تظن أن الله تعالى خلقك وفرغت منه أو استغنيت عنه إذ لو أنه سبحانه قطع مدد التكوين عن المكوَّن لحظةً لانعدم ولم يبق له كينونة.

ولقد دخل بعض السلف الصالح ليلةً إلى بيت الله الحرام ليطوف حول الكعبة فرأى رجلاً صالحاً متوجهاً إلى الكعبة يهتف بربه جل جلاله:

ألا أيها المقصود في كل حاجة　　　شكوت إليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا إلهي أنت تكشف كربتي　　　فكفِّر ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى　　　فأين رجائي ثم أين مخافتي

قال: فدنوت منه لأعرفه فإذا هو الإمام زين العابدين [1]سيدنا علي بن السبط الشهيد سيدنا الحسين بن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين.

فقوله رضي الله عنه: (ألا أيها المقصود في كل حاجة) هو ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ سبحانه.

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَكُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ] - وفي رواية: [لَمْ يَنْقُصْ مِمَّا فِي يَدَيْهِ شَيْئًا[2]]- [وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، بِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ][3].

وبيَّن صلى الله عليه وسلم إمداد الله لعباده ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ][4] وفي هذا ذم للبخيل وأنه مذموم عند الخالق سبحانه وعند المخلوق.

ويقول صلى الله عليه وسلم: [إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً][5].

---

[1] هو سيدنا عليٌّ زين العابدين بن سيدنا الحسين رضي الله عنهما وأرضاهما، ولد سنة ٣٣ هـ، ومن ألقابه: (زين العابدين) لاجتهاده في العبادة ، و(السجّاد) لكثرة سجوده، و(علي الأصغر): لأنه الابن الثاني لسيدنا الحسين الذي أطلق عليه اسم (علي)، عاش رضي الله عنه ٦٢ سنة، وتوفي يوم السبت في الثامن عشر من شهر محرم سنة ٩٥ هـ بالمدينة المنورة، ودفن في البقيع.

[2] طرف حديث في مقدمة سنن ابن ماجه

[3] ١٠٠٩٦

[4] مسند الإمام أحمد ٦٩٩٧

[5] سنن النسائي كتاب الزكاة عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه

ثم هناك الإنفاق على الأرحام والفقراء والمساكين، يقول تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

فهو سبحانه يَسُحُّ على عباده من خيره وفضله، ويسدّد لهم ما يحتاجون، ويعطيهم ما يسألونه، وبيده سبحانه الميزان؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ وهذا الميزان هو فوق السماء السابعة وهو بيده سبحانه يتصرف بالقسط والعدل.

ف ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ينفق على عباده -من حيث يشعرون ولا يشعرون- ويسدد لهم المهمات؛ هذا هو الله سبحانه، قال جل جلاله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ أي ظلوم لنفسه كفّار لنعم ربه جل جلاله، أي فلا تظلم نفسك، واشكر الله على نعمه -التي لا تحصى- عليك.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل سبحانه: (وإن تعدّوا نِعَم الله) وذلك لأن النعمة الواحدة حَوَت نِعماً كثيرة لا تحصى.

أرأيت نعمة الخبز عليك؟!

فالخبز نعمة لكنها ما وصلت إليك إلّا بعدد كبير من النعم الإلهية عليك، من جملتها: أن الله تعالى أنزل الماء من السماء ومع كل قطرة مَلَكٌ يوصلها إلى مكانها، وسخَّر المُزارع أن يزرع الحبة في الأرض، وحفظ سبحانه الحبة في الأرض ونمّاها إلى أن أنبتت، ثم تمَّ حصادُها وطحنها وعجنها وخبزها وهكذا... إلى أن وصلت إليك خبزاً، فهي نعمة حَوَت نعماً لا تحصى.... وهكذا سائر النعم الإلهية على عباد الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ ونسأل الله جل جلاله دوام نعمه علينا، وأن نصرف نعمه علينا فيما يقرّبنا إليه سبحانه. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السادسة:
كلمات حول تفسير سورتَيْ:
الفلق والناس (المعوِّذتين)
في جامع الحموي

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال:

[كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا][1].

وروى مسلم في صحيحه عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾][2].

ورواه أحمد[3] والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال: [يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ؟

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: فَأَقْرَأَنِي ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾[4].

---

[1] سنن الترمذي كتاب الطب

[2] في كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[3] المسند ١٦٦٦٥ وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[4] المسند ١٦٦٩٦

وقال صلى الله عليه وسلم له: [اقْرَأْ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ فَإِنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا][1] أي: أنك مهما قرأت من تعاويذ فلن تقرأ بمثل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وإن في هاتين السورتين قوة في الاستعاذة بالله تعالى من جميع الشرور الخارجية والنفسية.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ -قبل أن تنزل عليه هاتان السورتان- يتعوذ بصيغ من التعاويذ؛ فيتعوذ من الجانّ ومن عين الإنسان، فلما نزلت عليه هاتان السورتان جعل يقرأ بهما وترك ما سواهما من التعاويذ من الجان ومن عين الإنسان، وذلك لأن في هاتين السورتين غنى عن غيرهما من التعاويذ.

ولقد علّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه علّمه هاتين السورتين تلقياً كما قال عقبة: [بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَاحِلَتَهُ فِي غَزْوَةٍ إِذْ قَالَ: يَا عُقْبَةُ قُلْ، فَاسْتَمَعْتُ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُقْبَةُ قُلْ، فَاسْتَمَعْتُ، فَقَالَهَا الثَّالِثَةَ فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَقَرَأَ صلى الله عليه وسلم السُّورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَرَأَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَرَأَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم: مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ][2].

وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: [اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ][3].

---

[1] المسند ١٦٦٨٤

[2] سنن النسائي كتاب الاستعاذة

[3] طرف حديث في المسند ١٦٦٥٨

وروى البخاري عَنْ أمِّ المؤمنين السّيدة عَائِشَةَ الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما وأرضاهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[١].

وفي رواية الموطأ عنها رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفِثُ.

قَالَتْ رضي الله عنها: [فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ] أي: لما مرِضَ صلى الله عليه وسلم مرض الوفاة [كُنْتُ أَنَا أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ عَلَيْهِ بِيَمِينِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا][٢].

وهذا يدل على أن هذه المعوذات هي للتحصن والتعوذ من الشرور كلها وهي أيضاً للاستشفاء من المرض والألم.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾:

﴿**أَعُوذُ**﴾: بمعنى: أتحصَّنُ. مِن: (عاذ بالشيء) إذا تحصَّن به.

والتعوذ يكون من المضارّ والشرور.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ**﴾: يأتي في سياق الجواب عن سؤال -كما هو في آيات من كتاب الله تعالى- وفي هذه الآية له حكم الجواب، والمعنى : إذا أردت التعوذ الحصين القوي فقل: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾.

---

[١] صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

[٢] موطأ الإمام مالك كتاب الجامع

فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم كما قيل له[1].

وفي ذلك لفت للفكر أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى وليس من عنديّات ومصطَنَعات رسول الله صلى الله عليه وسلم -ولو كان من عنده صلى الله عليه وسلم لَمَا قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ بل قال: (أعوذ)- فهو كلام الله تعالى أوحاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم كما قيل له.

ومن الأدلة -التي يشعر بها ويتذوقها كل مؤمن- على أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وليس من مصطَنعات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ من الأدلة على ذلك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن على الناس ويقول لهم: قال الله تعالى... ثم يتكلم صلى الله عليه وسلم بكلام من عنده وهو أحاديثه الشريفة[2].

---

[1] روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: (سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ صلى الله عليه وسلم:
[قِيلَ لِي، فَقُلْتُ]، فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).
وإن الأدلة على أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على الحقيقة أوحاه إلى رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمره بتبليغه لهي أدلة قاطعة ساطعة ذكر جملة كبيرة منها مولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه: (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به .

[2] روى الإمام أحمد في مسنده ١٨١٧٧ عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قَالَ صلى الله عليه وسلم:[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ بِأَعْيُنِهِمْ].

فلقد فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بيْن كلام الله تعالى الموحَى إليه وبيْن كلامه صلى الله عليه وسلم الذي هو من إنشائه باللفظ -وإن كان معناه بوحي من الله تعالى.

ويجد المؤمن في كلام الله تعالى هيمنة وعلواً وسلطاناً على القلوب لا يجده في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالقرآن كلامُ ربٍّ يخاطب عباده، وأما أحاديثه صلى الله عليه وسلم فهي كلام خاتم الرسل الذي آتاه الله جوامع الكَلِم.

وإن كلام الله تعالى له وجوه كثيرة في الإعجاز، ومِن إعجازه: العجزُ عن استقصاء وجوه إعجازه، فهناك الإعجاز النصّي، والبلاغي، والخبري، والغيبي، والإعجاز في أحكامه، وقوةِ تأثيره على القلوب، وروحانيّته، وأسراره، وإشاراته.

ولقد عجزت الإنس والجن -ولو اجتمعوا- عجزوا عن الإتيان ولو بسورة مثله، فمِن أين أتى به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه نشأ أمّيّاً في قومه لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم من أحَد؟!

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**﴾.

فلقد أوحى الله تعالى إلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى إليه هذا القرآن العظيم وبعثه على تمام الأربعين من عمره صلى الله عليه وسلم فصار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قارئاً عالماً نبياً رسولاً إلى جميع الأنام إلى يوم القيامة، ويقول تعالى في بيان ذلك: ﴿**قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾.

أي: قل لهم يا رسول الله -قل للمنكرين هذا القرآن والمنكرين نبوّتك ورسالتك-: (لو شاء الله ما أتيتكم ولا بآية؛ فقد عشت بينكم أربعين سنة ولم آتِكم بآية واحدة، ولم أقرأ عليكم شيئاً، فتعقّلوا وتفكّروا: من أين جئتكم بهذا القرآن العظيم الذي أعجز بلغاءكم وفصحاءكم وعلماءكم؟!

نعم إنه حقاً كلام رب العالمين جل جلاله أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾: أي: أتحصَّن برب الخلْق، و﴿**ٱلْفَلَق**﴾: على وزن (فَعَل) ويأتي على معنى المفعول كقولك: (قَبَض): على الشيء المقبوض .

وأما طريق حصول ذلك فيسمى شق الشيء: (الفَلْق) - بفتح القاف وسكون اللام -، ويسمى الشيء المفلوق: ﴿**ٱلْفَلَق**﴾: -بفتح اللام-[1].

وعلى ذلك يكون معنى ﴿**ٱلْفَلَق**﴾: الفليقة وهي الخليقة، وهي المخلوقات كلها إذ إن الله تعالى خلق المخلوقات بأن فلقها مِن غيرها إلى أن انتهى أمرها أنه تعالى فلقها من ظلمة العدم إلى نور الوجود.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: فلق نور الصباح عن ظلمة الليل فشقّ خَتْمَ الظلمة وأخرج منه نور الصباح، فالصباح (فَلَق) أي مفلوق عن الظلمة، والذي فَلَقه هو الله تعالى رب الفلق.

وكذلك الإنسان فإن الله تعالى فلق الأرحام وأخرج الأولاد، كما فلق ماء الرجل من صلبه وهكذا ما بين أصلاب وأرحام إلى آدم عليه السلام الذي فلقه سبحانه من أديم الأرض.

وكذلك الأرض كانت جملة في الماء ثم فصل سبحانه الأرض مما تجمّد من الماء وخلق السماء من بخار ذلك الماء كما قال سبحانه:

﴿**أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا**﴾ أي: كانتا جملة واحدة من الماء ثم فصل سبحانه كل واحدة منهما فخلق الأرض من الماء المتجمد وخلق السماء من بخار ذلك الماء.

[1] انظر (لسان العرب) مادة (فلق).

كما أنه سبحانه خلق ماء الحياة، ومِن ماء الحياة خلق سبحانه كل شيء، فكل شيء مخلوق إنما هو فَلَق أي: مفلوق عن غيره، وهذا من حيث المخلوقات الماديّة الحسيّة.

أما من حيث المخلوقات المعنويّة فأول المخلوقات هو النور المحمّدي صلى الله عليه وسلم[1] وهو بالنسبة لماء الحياة بمنزلة الروح من الجسم.

ومِن ماء الحياة خلق الله تعالى سائر الأشياء كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فيفلق الحبة ويخلق منها السنبلة، والحَبّ يشمل جميع أنواع الحبوب كالحنطة والذرة والشعير والخردل وبقية الزروع، ويفلق سبحانه النواة ويخلق منها الشجرة الكبيرة المثمرة.

والحبة والنواة مفلوقة عن الأرض، والزروع والأشجار مفلوقة عن الحبوب والنوى.... وهكذا، فهو سبحانه رب الفلق، فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وفالق الخليقة كلها من ظلمة العدم.

وقد جعل سبحانه فلْقَهُ للصباح بأن شقّ ظلمة الليل وفجّره حتى انفجر منه نور الصباح.

---

[1] كما في حديث جابر الذي رواه الإمام عبد الرزاق في (مصنّفه) أنه رضي الله عنه قال: [قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أوّل شيء خلقه الله قبل الأشياء.
قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك مِن نوره] .... الحديث كما في (المواهب) وشرحها، و(كشف الخفا) وغير ذلك.
وانظر تخريج هذا الحديث الشريف مفصلاً وموسعاً في كتاب: (إتحاف المحبين بذِكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه) لابن الشيخ الإمام سيدي العلّامة الشيخ محمد محيي الدين سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه، وذلك في الصفحة رقم ٣٢٧ حتى الصفحة ٣٣٢ .
ويمكنك تحميل الكتاب من الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام www.srajalden.com من قسم: مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة.

وبنور الصباح جعلتِ الأشياءُ تظهر للعِيان بعد أن كان الليل قد أخفاها بظلمته، فجعل سبحانه هذه الآية الكبيرة عبرة وعظة لكل عاقل تحمله على التفكر بقدرته سبحانه الذي خلق وأوجد الأشياء كلها من ظلمة العدم وأفاض عليها سبحانه من نوره فصارت موجودة ظاهرة قائمة به سبحانه.

ولما كان انفجارُ الصباح من ظلمة الليل آيةً تدل على عظمة الله تعالى وقدرته سبحانه تحتّم على العباد أن يقوموا ويسجدوا لله عبادة وحمداً له سبحانه، وهذا من أسرار صلاة الفجر إذ لو ترك سبحانه الليل مستحكماً سرمداً إلى يوم القيامة مَن يقدر على الإتيان بالضياء؟!

قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي أعوذ برب الخلْق.

والفلَق والفليقة بمعنى: الخلْق والخليقة وهي المخلوقات كلها.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر خلْقٍ خَلَقه وله شر، ويشمل هذا شرور شياطين الجن والإنس وسائر الهوامّ والحشرات والحيوانات.

واعلم أن أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام كلهم خير وبرّ، ولا يصدر منهم إلا الخير، وكلما تحقق الإنسان باتباعهم قلّ شرّه وكثر خيره، وكذلك ملائكة الله تعالى فهم محض الخير والسلام.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: ذكر سبحانه بعض الشرور بأعيانها وذلك لقوة أثرها وخطرها، ومنها الغاسق إذا وقب وهو الظلمة، والمعنى: مِن شر ظلمة أقبلت بعد النور، ومِن جملة ذلك: الظلمة التي تنشأ عن غياب نور القمر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا دخل، فجاءت الاستعاذة من شر كل ظلمة إذا دخلت هذا الكون، ومن ذلك: غياب الشمس ودخول الليل وغياب نور القمر.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ] -وفي رواية: [إذا كان جنح الليل][1] أي: إذا غابت الشمس وأقبل الليل- [فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ][2]... الحديث أي : كُفُّوا صبيانكم عن التجوّل وذلك لأن الأرواح الشيطانية تنتشر في الأرض وربما تؤذي الصغار .

وينبغي الاستعاذة من كل ظلمة، سيّما ظلمة بعد نور فإن الظلمات هي مواضع الهتك والفتك.

ولما سأل رجلٌ مسيلمة الكذّاب -الذي ادعى النبوة- سأله: هل ينزل عليه الوحي؟ قال: نعم، قال: كيف يأتيك؟ قال: (يأتيني في ظلماء حِنْدِس) -بكسر الحاء وسكون النون وكسر الدال- أي في مثل ظلمة الليل البهيم.

ثم سأل هذا الرجلُ رسولَ الله سيدَنا محمداً صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟

فقال صلى الله عليه وسلم: [يأتيني في مثل ضوء النهار].

فعرف الرجل من ذلك أن الذي ينزل على مسيلمة هو الشياطين التي لا تناسبها إلا الظلمات، وهذا حال الحشرات والحيوانات المؤذية فلا تنتشر إلا في الليل حتى إذا جاء النهار أوت إلى المغارات المظلمة والجحور الضيقة.

وكما ينطبق هذا على الظلمات الحسية ينطبق على الظلمات المعنويّة، فعلى المؤمن أن لا يجعل للشياطين سبيلاً إلى قلبه، وذلك بأن يكثر من ذِكر الله تعالى فيستنير قلبه فتتباعد عنه الشياطين كما تتباعد الحشرات عن البيت المنير.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأشربة

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

وعن أبي قتادة رحمه الله أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ لَيْلَةً فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ -أي: بالقراءة وكان هذا في قيام الليل للتهجد-.

قَالَ: وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ -أي بالقراءة-.

قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ.

قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: وَقَالَ لِعُمَرَ: مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ.

قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوقِظُ الْوَسْنَانَ[١] -أي لعله ينتبه فيقوم ويصلي- وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا، وَقَالَ لِعُمَرَ: اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا[٢].

ويدلك هذا على أن الجهر بقراءة القرآن وذِكر الله تعالى يطرد الشيطان.

قوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ**﴾ أي : من شر النفوس الساحرة التي تنفث في العقد للأذى والضرر، وهذا ما يفعله السحرة بأن يلفظ أسماء شيطانية ويعقد عقداً وينفث فيها.

وقوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ ومن شدة خطر الحسد قَرَن الله تعالى ذِكره بذِكر السحر وشروره.

والحسد[٣] هو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة رآها على غيره.

---

[١] قال في تحفة الأحوذي٤٣٣/٢ :(أَيِ النَّائِمَ الَّذِي لَيْسَ بِمُسْتَغْرِقٍ فِي نَوْمِهِ).

[٢] انظر سنن أبي داود كتاب الصلاة

[٣] انظر تفاصيل هذا البحث في كتاب: (حول تفسير سورة الإخلاص والمعوِّذتين) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه.

وقد يؤدي الحسد إلى الاعتراض على حكمة الله تعالى الذي أنعم على عباده بمقتضى علمه وحكمته سبحانه.

وهناك حسد محمود يُعرف بـ (الغبطة) وهو أن يتمنى الإنسان ما عند غيره دون أن تزول النعمة عن هذا الغير، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم:

[لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا][1].

وفي هاتين السورتين (الفلق) و (الناس) بيان لحاجة الإنسان إلى التعوذ من الشرور الخارجية التي تعتريه -مِن حسد الحاسد وعين العائن وشرور الإنس وأذى الجن بالسحر وغيره، ومن الشرور العارضة كالغاسق إذا وقب وما يترتب على ذلك، ومن شرّ كل ذي شرّ مِن خلق الله تعالى-.

وهذه التعاويذ كلها جاءت في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.

أما التعوذ مِن الشرور النفسية الصادرة عن نفْس الإنسان فهي في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ**﴾.

وما أحوج الإنسان إلى التعوذ والتحصن برب العالمين من شرور خارجية تعتري الإنسان ومِن شرور نفسانية تصدر عنه.

ومَن تعوّذَ من ذلك كله وتحصَّن بالله صار في أمانه سبحانه.

[1] صحيح البخاري كتاب العلم

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أسماء من أسمائه جل وعلا : أولها اسم (الرب) ثم (الملك) ثم (الإله)، وجاء التعوذ بحضرات هذه الأسماء كلها: حضرة الربوبية وحضرة الملكية وحضرة الألوهية، وجاء التحصن بهذه الأسماء -الجامعة لأسماء أخرى- جاء التحصن من أمر كبير عظيم وهو: الوسواس الخناس.

فما أعظم خطر الوسواس الخناس وما أعظم شره على النفس والقلب!

واسم (الرب) يدل على معاني متعددة[1]:

فيطلق على الخالق وهو الله تعالى، ويطلق على السيد -والسيادة المطلقة هي لله وحده، والخلق كلهم عبيده-، ويطلق على المالك فتقول: (رب الدار) أي مالكها، و(رب الناقة) أي: مالكها، ويطلق على الثابت المقيم فيقال: (ربَّ في المكان) أي : أقام.

والثابتُ الوجودِ القديمُ الذي لا يحول ولا يزول ولا يتغير هو الله جل وعلا.

ويطلق اسم (الرب) على المربي -مأخوذ من التربية-، فقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي خالقهم وبارئهم ومصوّرهم ورازقهم .

وحضرة الربوبية تشمل عدة أسماء إلهية.

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي المتصرف فيهم على مقتضى علمه وحكمته جل وعلا، وهو سبحانه المالك لذوات الأشياء، وهو الملك أي المتصرف فيهم المدبر لأمورهم، فعّال لما يريد والكل له عبيد.

وكلمة (مالك) مشتقة من المِلك بكسر الميم، وأما المُلك -بضم الميم- فهو التصرف[2].

---

[1] انظر: (لسان العرب) مادة: (ربب)

[2] انظر (لسان العرب) مادة: (ملك)

وهو سبحانه الملك الحق، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

والملك الحق يتصرف بالحق، فيأمر بالحق، ويشرع بالحق، ويجمع الناس ليوم الحق، ويحاسبهم بالحق، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ - أي: جزاءهم- ﴿ٱلْحَقَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المعبود بحقّ ولا يُعبد غيره -وذلك بعد أن بيّن سبحانه أنه هو رب الناس وملك الناس- فهو سبحانه ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المعبود بِحَقّ، ويجب أن يعبدوه جل وعلا لأنه خالقهم ورازقهم ومربيهم والمتصرف فيهم.

ومن زعم أنه رب نفسه فيقال له: لِمَ خلقت نفسك على هذه الهيئة والصورة مع أنك تطمع أن تكون أجمل وأحسن؟!

ولم لا تدبر أمور جسمك وحركة أحشائك؟!

وهل أنت تنظِّم ضربات قلبك؟!

إذاً اعترف لنفسك بأنك مربوب، وأن الله تعالى ربك وخالقك ومُمِدّك، وأنك عاجز عن إنبات شعرة واحدة من شعر رأسك إن أصابها الصَّلَع.

ومن زعم أن ربه هو أبوه فيقال له: لقد كان أبوك عاجزاً عن خلق نفسه وإعطائها ما تريد؛ فضلاً عن أن يكون لك خالقاً!

وإنما كان هو سبباً في خلق الله تعالى لك.

ولما تزوج والدك لم يكن يعلم هل سيرزقه الله ولداً أم لا ...

ولم يكن يعلم كم سيرزقه الله من الأولاد ... وهكذا.

فالإله الذي يجب أن يُعبد هو الرب الخالق للعباد والمتصرف فيهم.

وأما أن يَعبد الإنسان غير ربه فهو ضلال، وليس من العقل والحكمة في شيء.

وهذا السر في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ بعد أن ذكر سبحانه أنه ربهم ومَلِكُهم ليبين أنه هو الرب الذي يجب أن يُعبَد بحق.

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ لقد علّم الله تعالى عباده التعوذ والتحصن به سبحانه وبحضرات أسمائه (الرب) و(الملك) و(الإله)، وهذا التعوذ والتحصن بالله تعالى هو مِن أمر كبير له خطره على الإنسان وهو: الوسواس الخناس.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وهو وصف وليس بمصدر، فهو صفة لموصوف محذوف تقديره: (من شر الشيطان الوسواس) -أي: الموسوس.

وقد حذف الموصوف لأنه معروف الوصف كما تقول مثلاً: (جاء في المنافق....) ومرادك: (جاء في الرجل المنافق)، فلم تذكر الموصوف لأنه معلوم لا حاجة لذِكره.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي: الموسوِس الخنّاس، وجاء بيان الموصوف بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي من شياطين الجن ومن شياطين الإنس.

أما الوسوسة فهي إلقاءات خفية يأتي بها الشيطان إلى الإنسان فيزيّن له أموراً ويحسّن له أموراً استقبحها الشارع.

وهذه الوسوسة الشيطانية الجِنّيّة تكون عن طريق الصدر إلى القلب، أما الوسوسة من شياطين الإنس فتكون عن طريق الأذن إلى القلب وتسمى (وشوشة)[١] وفيها يزيّن شيطانُ الإنس لغيره فِعلَ المنكرات ويحرضه عليها.

---

١ ارجع إلى (لسان العرب) مادة: (وشوش)

وقد جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى مكّن الشيطان من الدخول إلى عروق الإنسان التي يجري فيها دمه ليلقي في صدره وقلبه الوساوس، ولذلك يحتاج الإنسان إلى تعوّذ.

ففي الحديث الذي رواه الشيخان عن سيدنا علي بن الحسين رضي الله عنهما أن أمّ المؤمنين السيدة صفية رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها جاءت إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب -أي ترجع إلى حجرتها- فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب السيدة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا -أي : أسرعا في السير- فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عَلَى رِسْلِكُمَا] -أي لا تُسرعا- وفي رواية: [إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ][1] -أي: إنها زوجتي وليست امرأة أجنبية عني- [قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا][2].

وفي رواية: [إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا][3].

وفي رواية: [وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا][4] يعني: أن تظنّا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بأجنبية -وإن ذلك يُخرجهما من الإيمان-.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الاعتكاف
[2] انظر صحيح البخاري كتاب فرض الخمس وصحيح مسلم كتاب الزينة
[3] صحيح مسلم كتاب السلام
[4] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الخلق

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

[جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلُوهُ:

إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ][1].

وفي رواية: [ذَاكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ][2].

وفي سنن أبي داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

[جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ][3].

وذلك لأن من دخل في الإسلام فإن الشيطان يأتي ليضلّه، وكذلك من قام إلى الطاعة والعبادة، فلا بد للإنسان عندئذ مِن تعوّذ وتحصّن بالله تعالى، ومِن علمٍ يدفع به الشبهات والضلالات التي يحرّكها الشيطان في قلبه؛ حتى إذا تمكن الإيمان في قلبه واعتاد فعل الطاعات ضَعُفَ كيدُ الشيطان نحوه ولا يضره؛ كالزبد الذي يذهب جفاء، قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ**﴾-وهو الإيمان- ﴿**فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ أي : في أرض القلب.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] مسند الإمام أحمد ٩٤٩٨

[3] سنن أبي داود كتاب الأدب

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ يقال في اللغة: (خنس الشيء) إذا اختفى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ وهي الكواكب السيّارة التي تخنس في النهار -أي تختفي- وتظهر في الليل.

فيأتي الشيطان إلى صدر الإنسان ويلقي وساوسه.. فيذْكر الإنسانُ اللهَ تعالى فيتراجع الشيطان ويختفي، حتى إذا غفل الإنسان عن ذِكر الله تعالى عاد الشيطان إلى الوسوسة، وهكذا شأنه ما بين خُنوس -أي: خفاء- وظهور وتأثير .

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ صفة مبالغة مِن : (خنس) وهي أبلغ من : (خانس)، والمعنى: أنه كثير الخنوس أي: كثير الذهاب والمجيء، وكثير الظهور والاختفاء.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [إن الشيطان واضعٌ خَطْمَهُ[1] على قلب ابن آدم، فإنْ ذكر اللهَ خنس، وإن نسي التقم قلبه فذلك ﴿ٱلۡوَسۡوَاس ٱلۡخَنَّاسِ﴾][2].

وأخرج ابن شاهين عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إن للوسواس خَطْماً كَخَطْم الطائر، فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإنِ ابنُ آدم ذَكَرَ اللهَ نكص وخنس، فلذلك سمي: ﴿ٱلۡوَسۡوَاس ٱلۡخَنَّاس﴾] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡوَسۡوَاس ٱلۡخَنَّاسِ﴾ قال: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل: وسوس، وإذا ذكر اللهَ: خنس).

---

[1] قال المُناوي في فيض القدير: أي فمه وأنفه، والخطم من الطير: منقاره، ومن الدابة: مقدم أنفها وفمها.

[2] عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور لابن أبي الدنيا في (مكايد الشيطان) ولأبي يعلى وابن شاهين في (الترغيب في الذِّكر) والبيهقي في (شُعب الإيمان)

ولا بد لِمَن ذَكَرَ اللهَ تعالى -بحضور قلب ومراقبة- لا بد له أن يخنس الوسواس عنه، ومن لم يجد ذلك وجب عليه أن يحضر قلبه أثناء ذِكره لله تعالى، وأن يلاحظ عظمة الله تعالى وكبرياءه وقدرته على كل شيء، ولا بد عند ذلك أن يجد في صدره انشراحاً، وفي نفسه اطمئناناً.

ولقد جاء التعوذ أولاً من شر الوسواس الخناس أي من شرور الشيطان كلها، وإن أخطر شروره على الإنسان هو الوسوسة؛ فجاء ذِكرها خصوصاً في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.

والقلب في جوف الصدر بمنزلة الغرفة في ركن من ساحة الدار، وكلما كانت ساحة الدار نظيفة كانت الغرفة نظيفة لأن الأوساخ والغبار لا تأتي إلى الغرفة إلا بطريق ساحة الدار، وهكذا الشيطان يلقي بوساوسه وهواجسه في ساحة الصدر، ومن لم يقم بطردها وتنظيف صدره منها فإنها ستصل إلى قلبه.

ومن هنا تكون أهمية التعوذ وحاجة الإنسان إلى التحصن والالتجاء إلى رب العالمين لكي يطرد عنه تلك الوساوس ويحفظه من شرورها.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يدل على أن هناك شياطين من الجن وشياطين من الإنس، وكل منهما له خطره على الإنسان، إلا أن شيطان الجن يأتي بوسوسته إلى الصدر والقلب، وأما شيطان الإنس فيأتي إلى القلب عن طريق الأذن، وفي بيان ذلك يقول سبحانه: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

[يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَهَلْ لِلْإِنْسِ شَيَاطِين؟

قَالَ: نَعَمْ، شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا][1].

ومَن يتفكّر في هذه السورة يعلم خطر الوسواس على الإنسان، لذلك جاء الأمر بالاستعاذة بربوبيته سبحانه والاستعاذة بملكه سبحانه والاستعاذة بألوهيته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ و﴿ٱلْجِنَّة﴾ -بكسر الجيم- هم الجن، وهم أخفياء عن النظر.

ومادة: (جنّ) في اللغة تدل على الستر والاختفاء، ومنه قولك: (جَنَّ عليه الليل): إذا أظلم، و(الجنين) هو الصغير في بطن أمه، وسمي: (جنيناً) لأنه لا يُرى[2].

ولا يَرى الجن على حقيقتهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كَشَف له سبحانه عن ذلك مِن كبار الأولياء، أما إذا تمثل الجني بصورة فيُرى عندئذ لكل ناظر.

فالإنسان يُبْصَر ويُرَىٰ، ولذلك جاء ذِكره في مقابلة الجانّ، قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾

فالجان هو: المستتر الخفي الذي لا يُرى، فلما قابله بالإنسان دلّ على أنّ الإنسان سُمي بذلك لأنه يُرى، قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، وقال جل وعلا: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

فترى في كثير من الآيات يقابَل الإنس بالجن لأنّ الإنسي يُبصَر ويُرى، وأما الجني فهو خفي لا يُرى إلا على وجه خاصٍّ كما هو معلوم.

وقال بعض علماء اللغة: إن الإنسان هو مشتق من الأُنس ضد الوحشة، لأنسه ببني جنسه، لأنه مَدني بالطبع يألف ويؤلف.

---

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢١٢٥٧

[2] انظر (لسان العرب) مادة: (جنن)

ولذا قيل:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلـب إلا أنـه يتقلب

وقيل: سمي الإنسان: لنسيه -مأخوذ من النسيان- كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنَسْيه وأوَّلُ نـاسٍ فيهم أول الناس

وجمع الإنسان: ناس، وأُنس، وأناسيّ، وهذه تعتبر بالنسبة للإنسان أسماء جموع كما هو معلوم ومفصل في كتب اللغة.

وإن أكمل إنسان وأفضل إنسان وأعظم إنسان هو الإنسان الكامل المكمِّل لكل إنسان وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

ونسأل الله تعالى التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السابعة:
حول شُعب الإيمان
وأن الإيمان بالله تعالى هو النواة الأُولى
لجميع الشّعب الإيمانية

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن أهم العلوم التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم إنما هي العلوم التي تتعلق بالقضايا الإيمانية، ولذلك فصَّل القرآن الكريم قضايا الإيمان، وبَيَّن حقائق الإيمان، وبَيَّن شُعب الإيمان، وبَيَّن الصفات الإيمانية التي يجب على المؤمن أن يتصفَ بها، وبَيَّن صفات المؤمنين والواجبات والحقوق التي بينهم، وربط جميع ذلك بالإيمان.

ولما كان الإيمان هو أفضل العلوم وأشرفها -وهو أساس القضايا والنظريات الصحيحة كلها- لذلك ترى أن القرآن الكريم قد خصص بعض السور لذِكر قضية الإيمان، وبهذا التخصيص صارت السورة أفضل من بقية السور، ومِن هذا أن سورة الإخلاص وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ تعدل ثلث القرآن، وقد جاء في فضل تلاوتها أحاديث كثيرة، وذلك لأن موضوعها إنما هو في توحيد الله تعالى وذِكر صفاته وكمالاته سبحانه.

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:[احْشُدُوا] -أي اجتمعوا- [فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ][2].

يعني أن الشيء الذي أخبرتكم عنه ووعدتكم به قد أنفذته -وذلك باعتبار أن سورة الإخلاص تتعلق بالإيمان بالله تعالى وبتوحيده سبحانه، وفيها صفات الإثبات والتنزيه، ولذلك صارت تعدل ثلث القرآن-.

ومن ذلك: آية الكرسي؛ فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنها أعظم آية في كتاب الله تعالى.

روى مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: [يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟

قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

قَالَ: فَضَرَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ][3] -أي هنيئاً لك هذا العلم- وأقرّه صلى الله عليه وسلم على ذلك.

---

[1] أي: سورة الإخلاص

[2] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[3] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وقد ورد في سورة الفاتحة أنها السبع المثاني، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فقابل سبحانه ذِكرها بالقرآن العظيم مما يدل على أنها حوَت معاني القرآن إجمالاً؛ لأن فيها التوحيد والنّبوّات والرسالات والوعد والوعيد والإخبار عن الأمم السابقة، ولذلك فهي تَعْدِل -من حيث الإجمال- تعدل القرآن كله.

وقد تقدم أن للإيمان حقائقَ، وليست قضايا الإيمان قضايا خيالية نظرية وإنما هي قضايا تحقيقية عملية، ومن وصل إلى حقيقة الإيمان -أي وصل إلى التحقق بحقائق الإيمان- فهو الداخل في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ أي أنهم تحققوا بحقائق الإيمان فصاروا هم المؤمنين حقاً عند الله تعالى.

فالإيمان علم وتحقق، فلا يكفي أن تعرفَ أو تعلمَ أن الصلاة فرض فقط بل عليك أن تعلمَ أنها فرض وتعتقد بذلك وأن تؤديها كما أمر الله تعالى، ولذلك قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وكذلك أيضاً: التوكل على الله تعالى، فيجب أن تعلم أن التوكل على الله أمر نافع وواجب على كل مؤمن ثم أن تتحقق بالتوكل على الله تعالى، قال عز من قائل: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فهم يتوكلون على ربهم سبحانه لا على الأسباب التي يتعاطونها، وهم وإن تعاطوا الأسباب المشروعة فقد فعلوا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى لأنه أمرهم بذلك كما في قوله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾، وقوله جل جلاله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾، وأمرهم بذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

[تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً؛ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ][1] فقد أخذوا بالأسباب على أنها أسباب وليست أرباباً، وأيقنوا أن مسبِّب الأسباب هو الله تعالى فتوكلوا عليه، قال جل جلاله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

روى الطبراني في المعجم الكبير والبيهقي في الشُّعب عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم له: [كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً.

فقال صلى الله عليه وسلم: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟] أي أن الإيمان أمر حق، ولكل حق حقيقة تدل عليه، فما هي حقيقة إيمانك التي تحققت بها وانتهيت إليها؟

[فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا] -أي زهدت وأعرضت عن الدنيا- [وأسهرتُ لذلك ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً] -أي أنه تحقق بهذا المقام وهو الإعراض عن الدنيا والزهد فيها رغبة فيما عند الله تعالى فصار في مقام كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزاً- [وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها] -أي: يصيحون من شدة الجوع والألم- [فقال صلى الله عليه وسلم: يا حارثُ: عرفتَ فالزم] ثلاثاً.

وفي رواية: [عرفت فالزم، عبدٌ نوَّر الله قلبَه بالإيمان][2].

وروى أبو داود أن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ لِابْنِهِ: [يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ][3]... الحديث -أي لن تتذوق وتصل إلى حقيقة الإيمان حتى تؤمن حقيقة بالقدر-.

---

[1] مسند الإمام أحمد ١٧٧٢٧ واللفظ له وهو في سنن ابن ماجه كتاب الطب وسنن الترمذي كتاب الطب

[2] طرف حديث في (الزهد الكبير) للبيهقي

[3] سنن أبي داود كتاب السنة

ومعنى الإيمان التحقيقي بالقدر: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، لأن كل ذلك بقدر الله تعالى وقضائه.

وإن البحث في حقائق الإيمان سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

واعلم أن للإيمان شُعَباً وفروعاً كشُعب وأعضاء الشجرة، وإن أصل هذه الفروع والشُّعب كلها إنما هو الإيمان بالله تعالى المعبَّر عنه بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فإن كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كلمة جامعة لجميع مراتب الإيمان بالله تعالى، وإن جميع الشعب الإيمانية منطوية تحتها.

والإيمان بالله جل جلاله هو:

أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم:

[الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ][1].

ومعنى [أَدْنَاهَا]: آخِرُها - أي إن آخر شعبة من شعب الإيمان: إماطة الأذى أي إزاحته عن طريق المسلمين، فإذا مررت بطريق المسلمين ورأيت فيه أذى -أي ما يؤذي المارّين- فإن إيمانك يوجب عليك إزاحته أو إزالته -إن كان في وسعك ذلك- وليس هذا أمراً امتنانياً منك على غيرك، بل هو واجب إيماني عليك لا يكْمل إيمانك إلّا به .

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

فتأمل يا أخي المسلم:

أنه إذا كان الإسلام قد أمر بإزاحة الأذى عن الطريق لتبقى شوارع المسلمين نظيفة، فكيف بمن يؤذي طرق المسلمين وشوارعهم بإلقاء الأوساخ والأقذار؟!

نعم لقد نهى الإسلام عن ذلك وجاءت الأحاديث الكثيرة التي فيها النهي والتحذير من التبوّل في طريق المسلمين أو إيذاء الطريق بِقَذَرٍ أو نحوه[١]، فالإسلام دين النظافة:

نظافة القلب من العلل والآفات القلبية كالحسد والغش ونحوهما، ونظافة القالَب كنظافة الجسم والدار والطريق، وقد جعل الإسلامُ ذلك من شعب الإيمان.

---

[١] روى الطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم].
وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اتقوا اللاعِنَيْن.
قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟
قال صلى الله عليه وسلم: الذي يتخلى في طرق الناس أو في ظِلّهم].
أي: في ساحات مجتمعهم وجلوسهم.
وقوله صلى الله عليه وسلم: [اتقوا اللاعِنَيْن] يُمْكِنُ أَنْ يَكُون التَّقْدِير: اتَّقُوا الْأَمْرَيْنِ الْمَلْعُونَ فَاعِلُهُمَا.
ومعنى: [الذي يتخلى في طرق الناس]: أي يقضي حاجته في موضع يمر به الناس.
[أو في ظِلّهم] أي مستظل الناس الذي اتخذوه مقيلاً ومنزلاً ينزلونه ويقعدون فيه.
ارجع إلى (شرح النووي على مسلم) ٤٢٩/١
و(عون المعبود شرح سنن أبي داود) ٣٠/١

وإن الإيمان بالله تعالى يقتضي أن تعتقد أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وأنه سبحانه حق أي: واجب الوجود، وأنه سبحانه واحد لا شريك له -كما تقدم ذلك- وأنه سبحانه متصف بالصفات العليا، وله الأسماء الحسنى، وأن أسماءه وكمالاته جل جلاله لا نهاية لها، وأن كمالاته سبحانه مُطْلَقة، وذلك أن له سبحانه المثل الأعلى دائماً -أي الوصف الأعلى والأكمل- كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كما أن كل صفة من صفاته سبحانه لا نهاية لها، فقدرته سبحانه لا تنتهي، وإرادته تبارك وتعالى لا تنتهي، وعلمه جل جلاله لا ينتهي، وبصره عز وجل لا ينتهي... وهكذا سائر صفاته وكمالاته سبحانه وتعالى لأن كل ما يتعلق بالذي لا ينتهي لا ينتهي، فليس له سبحانه بداية ولا نهاية؛ بل كان جل جلاله قبل الأزل، وهو سبحانه باق إلى ما بعد الأبد، لأن الأزل والأبد أمر نسبي للمخلوق أما بالنسبة لله تعالى فلا أزل ولا أبد بل كان سبحانه حيث لا زمان ولا مكان، وهو جل جلاله على ما عليه كان.

واعلم أن جميع أسمائه سبحانه التي ظهرت آثارها في هذا العالم إنما هي منطوية تحت اسمه جل وعلا: [الظاهر]، وهناك أسماء باطنة تعود لاسمه سبحانه: [الباطن] لم تظهر في هذا العالم وإنما سيظهر منها على مدى العوالم.

واعلم أن الشعب الإيمانية متنوعة[1]؛ منها اعتقادية، ومنها عملية، ومنها خُلقية، ومنها قولية .....

[1] قال الشيخ الإمام في كتابه (حول تفسير سورة الفاتحة) في الصفحة رقم ١٦٩:
روى الإمام مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان].
وجاء في رواية البخاري: [بضع وستون شعبة]، ولكن أكثر روايات هذا الحديث عند غير البخاري: [بضع وسبعون]
وقد اتفق علماء الحديث الذين بحثوا في بيان تلك الشعب فاتفقوا على أكثرها، واختلفوا في تعيين بعضها اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ، فإنّ كل ما ذكروه مما اختلفوا في حدّه وتبيينه كل ذلك هو من فروع شجرة الإيمان، ومن شُعبها، والبحث في بيان تلك الشعب ونُقول أقوال العلماء فيها مفصلاً يحتاج إلى كتاب مستقل -وقد صنف العلماء في ذلك كتباً- ولكن أذْكُرها الآن بهذه المناسبة مُجْمَلَة دون شرح وتفصيل، على الوجه الذي ذكره العلامة الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى ونفعنا به وبجميع العلماء العاملين، فقد ذكر في شرحه: (تحفة الباري) عند شرحه للحديث ما حاصله:
إنّ الشعب جمع : شُعبة، هي في الأصل -في وضع اللغة- غُصن الشجرة، فشبّه الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب كثيرة.
قلت: وهذا الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾. فالكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، ثابتة في أرض قلب المؤمن، ومتمكنة فيه، ولها شعب كثيرة متفرعة عنها، فهي كمثل شجرة طيبة وهي النخلة -كما جاء ذلك في الصحيح- فإن أصلها ثابت في الأرض وراسخ فيها، وفرعها يعلو في السماء، وهي تؤتي أُكلها وثمراتها كل حين، وفي كل الأوقات لا ينقطع خيرها ما بين رُطب، وتمر ناضج، وتمر يابس، وعجوة: وأنواعها متعددة، وهكذا ثمرات الإيمان العملية والقولية والأدبية والخُلقية المَرْضية، فإنّها تعلو في السماء ترفعها الملائكة، قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ**﴾.. الآية، كما فصَّلتُ ذلك في كتاب (الصعود).
فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [الإيمان بضع وسبعون شعبة] فيه بيان الآية الكريمة، وأنَّ الإيمان له شُعَب كبيرة، وهي شعب كثيرة، كما شَبَّهَ صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام ببيت ذي عمد في حديث : [بني الإسلام على خمس].

والمراد بالإيمان في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [الإيمان بضع وسبعون شعبة] الإيمان الكامل، والإيمان الكامل هو: تصديق بالْجَنان -أي: القلب- وإقرار باللسان، وعمل بالأركان -أي : الجوارح-.

قال رحمه الله تعالى: فهذا الإيمان الكامل يشتمل على شعب ، ترجع إلى ثلاثة أنواع : قلبية ، وقولية ، وعملية.

فالأول: وهي الاعتقادية الراجعة إلى أعمال القلوب ، تتشعب إلى ثلاثين شعبة:

١- الإيمان بالله تعالى أي: بوجوب وجوده، ووحدانيته في ذاته وصفاته، واعتقاد حدوث ما سواه.

قال عبد الله: والإيمان الاعتقادي بجميع شُعبه لا يصح حتى يكون تصديقاً جازماً، بحيث لا يدخله شكّ ولا ارتياب، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**﴾.

٢- والإيمان بالملائكة عليهم السلام.
٣- والإيمان بكتبه.
٤- والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام.
٥- والإيمان بالقدر خيره وشره.
٦- والإيمان باليوم الآخر.
٧- والإيمان بوعده الجنة والخلود فيها.
٨- والإيمان بوعيده النار وعذابها.
٩- محبة الله تعالى.
١٠- محبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.
١١- والحب في الله تعالى لكل مَن يحبه الله، وما يحبه الله تعالى.
١٢- والبغض في الله تعالى لكل مَن يبغضه الله، وما يبغضه الله تعالى.
١٣- والإخلاص لله تعالى.
١٤- والتوبة إلى الله تعالى.
١٥- والخوف من الله تعالى، ورجاء رحمة الله وفضله.
١٦- وترك اليأس.
١٧- وترك القنوط.
١٨- والشكر.
١٩- والوفاء بالعهد.
٢٠- والصبر.
٢١- والتواضع للمؤمنين.
٢٢- والرحمة لخلق الله تعالى.
٢٣- والرضا بالقضاء.

٢٤- والتوكل على الله تعالى.
٢٥- وترك العُجْب.
٢٦- وترك الحسد.
٢٧- وترك الحقد.
٢٨- وترك الغضب.
٢٩- وترك الغش.
٣٠- وترك حب الدنيا.

والنوع الثاني وهو ما يتعلق بالأقوال : وهو يتشعب إلى سبع شعب :

١- التلفظ بكلمة التوحيد أي : الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
٢- تلاوة القرآن الكريم.
٣- تعلم العلم.
٤- تعليم العلم.
٥- الدعاء.
٦- ذكر الله تعالى بالأذكار الواردة.
٧- اجتناب اللغو.

النوع الثالث : وهو ما يرجع إلى الأعمال البدنية :

وهو يتشعب إلى أربعين شعبة ، وهي على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : ما يختص بالأعيان - أي : يتعلق بذات الإنسان المكلف، وهو ست عشرة شعبة:

١- التطهر.
٢- ستر العورة.
٣- إقامة الصلاة.
٤- إيتاء الزكاة.
٥- الصوم.
٦- الحج.
٧- الوفاء بالنذر.
٨- الاعتكاف.
٩- ذبح الضحايا.
١٠- الجود.
١١- فكّ الرقاب.
١٢- الصدق في المعاملات.
١٣- الشهادة بالحق.
١٤- الفرار بالدِّين من الفتن.

الصنف الثاني: ما يتعلق بعباد الله تعالى الذين لهم به صلة، وهي ست شعب:

١- بر الوالدين.
٢- التعفف بالنكاح.
٣- القيام بحقوق العيال.
٤- تربية الأولاد.
٥- صلة الرحم.
٦- طاعة أولي الأمر.

الصنف الثالث: الحقوق التي تتعلق بعامة العباد، على حسب اختلاف مقتضيات حقوقهم، وهي ثماني عشرة شعبة:

١- الحياء بأنواعه.

فالحياء شعبة من الإيمان وهو أمر خُلُقي، والخوف من الله شعبة من الإيمان، ومن لم يتحقق بها فهو ناقص الإيمان، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والخوف من الله تعالى أمر له حقيقة لا بد للمؤمن أن يتحقق بها، وليس كلٌّ من يقول بلسانه: (إنه خائف من الله) فهو خائف؛ إذ إن الخوف تأثّرٌ قلبيّ يحمل جوارحك وأعضاءك على موجب هذا الأمر، وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن مَن خاف الله تعالى حقاً: عَبَدَه حقاً وعمل بأمره وانتهى عن نهيه، قال صلى الله عليه وسلم: [مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ؛ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ][1].

٢- الإصلاح بين الناس.
٣- المعاونة على البر والتقوى.
٤- الأمر بالمعروف.
٥- النهي عن المنكر.
٦- الجهاد في سبيل الله تعالى.
٧- إقامة الحدود.
٨- أداء الأمانة.
٩- إكرام الجار.
١٠- حسن المعاملة في الأمور المالية وغيرها.
١١- حسن الْخُلُق مع جميع الْخَلق.
١٢- إنفاق المال على الوجه الذي شرعه الله تعالى.
١٣- البدء بالسلام.
١٤- ردّ السلام.
١٥- تشميت العاطس.
١٦- كفّ الضرر عن الناس.
١٧- اجتناب اللهو واللعب.
١٨- إماطة الأذى عن الطريق.

قال الشيخ زكريا رحمه الله تعالى -بعدما عدّ تلك الشعب-:
فهذه سبع وسبعون شعبة. اهـ.

[1] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

فلقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن الخوف أمر تحققي وليس قولياً فحسب، وأن الخوف إذا حلّ في قلب المؤمن حَمَلَهُ على أمور ومنعه عن أمور، فقال صلى الله عليه وسلم: [مَنْ خَافَ أَدْلَجَ] ومعنى [أَدْلَجَ]: سار أول الليل[1]، فمن كان مسافراً في الصحراء وأدركه الليل فإنه لا يستطيع النوم آمناً على نفسه ومتاعه، بل تراه يسرع في سيره حتى يصل إلى أقرب مكان آمن كبلدته أو قريته.

[وَمَنْ أَدْلَجَ] أي سار في الليل [بَلَغَ الْمَنْزِلَ] أي بلغ مأمنه، وكذلك المؤمن فهو مسافر إلى الآخرة، والعالم كله مسافر من أسماء إلهية إلى أسماء إلهية، والمؤمن قد سافر من الجنة إلى الدنيا، ولا بد له أن يمر على البرازخ الأخروية ليتعرف على أسماء إلهية كان يجهلها ويزداد بذلك إيمانه بالله ومعرفته به، فإذا كان المؤمن يقظاً لبيباً ذا بصر ثاقب فإنه يستمر سفره إلى الجنة التي خرج منها أي إلى وطنه الأصلي، فاحذر أيها المؤمن أن تشغلك الدنيا ويحيد بك السفر إلى جهنم، فما دمت في سفرٍ فعليك أن تخاف،و[مَنْ خَافَ أَدْلَجَ] أي جعل له نصيباً من عبادة الله في الليل، ومن فعل ذلك بلغ منزله، وما هو منزل المؤمن الأصلي الحقيقي؟

إنه الجنة التي خرج منها وسيُعاد إليها -إن كان عاقلاً- وهذا قوله صلى الله عليه وسلم: [أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ؛ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ].

واعلم أنه على قدر ثبوت نواة الإيمان الأصلية في القلب -وهي ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾- على قدر ثبوت ذلك تكون كثرة ثمراتها وخيراتها.

والأصل في موضع الإيمان إنما هو القلب، فإن حَلَّ وتمكَّن في القلب ظهر في الجوارح ولهذا قال السلف رضي الله عنهم: (الإيمان اعتقاد بالجَنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان).

---

[1] انظر (تحفة الأحوذي) ١٢٣/٧

وقد قال صلى الله عليه وسلم في بيان عمارة القلب بالإيمان، وفي بيان خرابه، وأن الجسم تابع للقلب:

[إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ] أي أن الحلال بيِّنٌ عند كل مؤمن؛ والحرام كذلك، أي: يجب أن يكون الحلالُ بيِّناً عند المؤمن والحرامُ بيّناً عنده -بمقتضى إيمانه إذ إن إيمانه يوجب عليه أن يتعلم الحلال والحرام ولو من حيث الإجمال في الأمور الضرورية من الدين-.

أما أن يعيش مؤمن في بلاد المسلمين ولا يعلم أن الخمر أو الربا حرام فهو متَّهَم في إيمانه، لأنك لو سألت غير المسلم: (هل الخمر أو الربا حرام في دين الإسلام)؟ لقال لك:(نعم) .

فكيف يجهل ذلك مَن ادّعى الإيمان؟!

قال صلى الله عليه وسلم: [وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ] أي تشبه كونها حلالاً أو حراماً، فهذه لا يعلمها إلّا مَن تفقَّه في شرع الله تعالى -وهم أولو العلم- ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: [لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ].

ثم بيَّن صلى الله عليه وسلم ماذا يجب أن يكون موقف المؤمن مع هذه الأمور المشتبهات فقال: [فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ] أي: مَن تورَّع عن الشبهات فقد برأ دينه وعرضه من النقص.

[وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ.

أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ][1].

فمن صلح قلبه بالإيمان صلح لسانه بالأقوال الطيبة، وصلح جسده بالأعمال الصالحة، ومَن فسد قلبه فسد لسانه وفسد جسده.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان وصحيح مسلم كتاب المساقاة واللفظ له

ومن هنا تفهم حماقة وجهل مَن يرتكب المخالفات الشرعية ولا يعمل بطاعة الله ويدّعي أن الدين في القلب!

قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ] .

ونقول له: لو كان قلبك عامراً بالإيمان لصلح جسدك وصلحت أعضاؤك بالعمل الصالح، لكن فساد عملك دل على فساد قلبك وخرابه.

ومَن قال:

(إن الدين ليس في الصلاة، وليس في الحج، بل هو في القلب وفي المعاملة) يُقال له:

(إن الذي بيَّن حقيقة الدين هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المشرِّع عن الله تعالى، فقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أن الدين يقوم على أسس ثلاثة: إيمان وإسلام وإحسان، وقال للصحابة رضي الله عنهم:

[فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ][1] .

فالدين يشتمل على الإيمان بالله تعالى، وعِمارة القلب بالإيمان، وعِمارة الجسد من الأركان بالعمل كالصلاة والحج والزكاة، فكيف تعطِّل فرائض الله تعالى التي هي من دينه جل وعلا؟!

وما هذا منك إلا جحود وزندقة، لأن قولك هذا يعني أنك تريد أن تفْصِل الصلاة عن الإيمان؛ والحال أن الإيمان في الصلاة، وفي الزكاة، وفي الحج، وفي الصيام، وفي حسن الخلق، وحب الخير للناس، وفي شُعب الإيمان كلها.

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قَالَ:[حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ؛ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ.

حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ[١] نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ[٢]، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ[٣]، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا[٤] قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ[٥] فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ[٦] فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ[٧]؛ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ[٨]، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالُ:"إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا"، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: "مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ!"؛ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ][٩].

---

[١] أي الإيمان

[٢] أي في أصل القلوب

[٣] أي جاء القرآن والحديث وفصّل لهم الإيمان النازل في قلوبهم، وبيّن لهم أحكامه وفروعه، فجاء القرآن ونمَّى ما في قلوبهم من نواة الإيمان لأن القرآن يقوّي الإيمان وينمّيه، والقرآن والإيمان متلازمان، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ**﴾ ... الآية.

وعلى قدر استعداد القلب للإيمان يكون تقبله وتفهمه للقرآن؛ لأن القرآن هو المثبّت والمقوّي والمحيي للنواة الإيمانية في القلب.

[٤] أي عن رفع الإيمان من القلب في آخر الزمن، وقد أطلق عليه [الأمانة] لأنه أمانة الله الكبرى، فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا**﴾ والأمانة هي الإيمان بجميع شعبه وتكاليفه، ومن جملتها: الأمانة المعروفة التي ورد ذِكرها في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد في المسند: [لا إيمان لمن لا أمانة له] ... الحديث

[٥] المقصود: الغفلة في الدنيا

[٦] لأن قلبه غفل عن الله تعالى وانهمك في الدنيا

[٧] وهو الأثر الذي يظهر على اليد إذا حملت شيئاً

[٨] أي كالورم الذي يظهر على الجلد إذا أحرِق فإنه عبارة عن صديد، وكذلك ترى الرجل حسب الظاهر مؤمناً ولكن لا إيمان في قلبه حقيقة.

[٩] انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

وعلى هذا فالإيمان له شُعب، وأول الشُّعب: الإيمان بالله تعالى، وأنه سبحانه متصف بالصفات والأسماء الحسنى، وأنه سبحانه له صفات الإثبات وصفات التنزيه.

أما صفات الإثبات فتدل على الكمالات القائمة بذاته سبحانه، وأما صفات التنزيه فهي تنزيه الله تعالى عما لا يليق به جل وعلا.

وإن كل صفة من صفاته سبحانه لا حد لها ولا نهاية، واعلم أنك مهما بحثت وفكرت واجتهدت أن تحيط علماً بصفة من صفاته سبحانه فإنك عاجز عن إدراك ذلك؛ إذ كيف يمكن للمخلوق المحدود في عقله وتفكيره وعلمه أن يحيط بما[1] لا حد له ولا نهاية؟!

ولم يعرف العارفون من الأولين والآخرين عن كمالات الله وصفاته إلّا الشيء القليل الذي بدا لهم من وراء حجب وحجب نورانية، ولا يعرف حقيقته سبحانه إلّا هو، ومهما عرفَ الخلائق فمعرفتهم على نسبتهم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ**﴾ أي ما عرفوه جل جلاله معرفة إحاطة ولم يدركوا حقيقة كنهه وذاته جل جلاله، بل إنه سبحانه أجل وأعلى مما عرفوا، قال عز من قائل: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا**﴾.

---

[1] والكلام هنا عن صفته سبحانه.

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ:

[قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ[1] فَقَالَ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ[2]، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ؛ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ][3].

قوله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ] لأن له سبحانه الحياة الذاتية الأبدية [وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ] أي لا يصح عقلاً أن ينام جل وعلا لأنه قيوم السماوات والأرض، أي به قوام جميع العوالم واستقامتها، وليس لها قوام من ذاتها، فلو نام -حاشاه جل جلاله- فمن يقوم بشأنها وتدبير أمرها؟

[يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ]: أي يتصرف في خلقه بموجب القسط والعدل، فإن أعَزَّ أو أذَلَّ كان ذلك بالقسط، وإن أقعد أو أسقم أو أمرض أو أحيا أو أمات: كان ذلك بالحق والقسط لأنه لا يصدر عن الحق جل وعلا إلا الحق.

[يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ] وكأنه قيل: وهل أحدٌ عند ذلك الرفع يُدرك ذاتَه جل وعلا؟

فقال صلى الله عليه وسلم: [حِجَابُهُ النُّورُ؛ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ] -أي أنوار وجهه المنزهة عن الكيفية- [مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ] أي لا يبقى عندئذٍ أثر لمخلوق بل العالم كله ينطوي ويحترق.

---

[1] أي كلمات جامعات، وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم -أي الكلام القليل الجامع للمعاني الكثيرة-.
روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ].

[2] أي: يخفض الخفض القسط، ويرفع الرفع القسط، فهو جل جلاله يتصرف ويدبر أمر مخلوقاته على موجب القسط والعدل الإلهي.

[3] صحيح مسلم كتاب الإيمان

فما عرف العارفون من جلال الله وقدرته إلا الشيء اليسير من وراء حجب نورانية، ولذلك قال جل جلاله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ولا يمكن لهم ذلك، وما عبدوه حق عبادته، وما شكروه حق شكره، وجاء في الحديث قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ][1].

قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾.

بعدما بيّن سبحانه عَجْزَ الخلائق عن معرفة ذات الله تعالى أو الإحاطة بكمالاته وجلاله فقال جل وعلا: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ**﴾؛ بيَّن بعد ذلك مظاهر قدرته جل وعلا، وأن أعظم ما ترى أيها المخلوق من العوالم المحيطة بك -وهي السماوات والأرض- ما هي إلا في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه وسيطرته سبحانه، قال عز من قائل: ﴿**وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ**﴾ أي بقوته جل جلاله.

ولا تتوهم من اليد: الجارحةَ المعروفة، لذلك اختتم سبحانه الآية بصفة التنزيه فقال عز وجل: ﴿**سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ فقرنها سبحانه بالتنزيه حتى لا تتوهم الجوارح أو التشبيه.

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها

واعلم أن السماوات والأرض ومن فيهن إنما هي في قبضة الله تعالى -أي تحت تصرفه وقدرته سبحانه-.

جاء في الحديث أنه سبحانه قال لآدم عليه السلام قال له عن يديه جل وعلا: [اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي؛ وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، ثُمَّ بَسَطَهَا فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَا هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ][1] ... الحديث

والعوالم الأخرى في القبضة الثانية: جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: [يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ] -أي بقدرته جل وعلا- [ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟][2].

وفي رواية يقول جل وعلا: [أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟][3]

وفي رواية: [يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده ثم يقول: أنا الملك.

أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

ثم يطوي الله الأرضين، ثم يأخذهن ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار.

أين المتكبرون؟][4].

فما العوالم كلها بالنسبة لقدرة الله تعالى إلّا أمر جزئي لا نسبة له إلى عظمة قدرة الله تعالى وسعتها، واعلم أن السماوات والأرض ومن فيهن ما هي إلّا كَلُقْمَة لمخلوق واحد من مخلوقات الملأ الأعلى، فقد حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حملة العرش وعظمتهم، ومِن عظمة حملة العرش تفهم شيئاً عن عظمة العرش الذي هو مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى.

---

[1] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وصحيح ابن حبان كتاب التاريخ

[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[3] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

[4] رواها أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب (العظمة)

ففي الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ[1] مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ][2].

وفي رواية: [وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعَمِائَةِ سَنَةٍ][3].

وفي الحديث الذي رواه الطبراني وغيره:

[إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا لَوْ قِيلَ لَهُ: "الْتَقِمِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ بِلُقْمَةٍ" لَفَعَلَ، تَسْبِيحُهُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ][4].

وجاء في المعجم الأوسط للطبراني أنه من حملة العرش.

وما هذه المخلوقات العظيمة إلّا مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، وإلا فقدرة الله تعالى لا تتناهى.

واعلم أنك كلما تنقلت في العوالم ارتفعت عنك حجب، وعرفت من الله ما لم تكن مِن قبلُ تعرف، فتزداد معرفتك، ويزداد إيمانك، ويزداد تعظيمك وتقديسك لله تعالى.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] أي كَتِفه

[2] سنن أبي داود كتاب السُّنّة

[3] انظر المعجم الأوسط للطبراني

[4] انظر المعجم الكبير للطبراني وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.
وقال الشيخ الإمام في كتابه (الإيمان بالملائكة):
والمعنى: سبحانك في قِدَمِكَ الذي لا أول له. اهـ

المحاضرة الثامنة:

حول بعض شُعب الإيمان

ومنها: الاعتقاد أن لله الأسماء الحسنى

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد بيَّن القرآن الكريم أن الإيمان هو الخير كلُّه، وأن الإيمان إذا فُقِدَ وقع الشر كله، ولهذا سمّى الله تعالى الإيمان بـ (الخير) فقال جل وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ -أي: إيماناً- ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ -أي يؤتكم خيراً وأفضل مما أخذه المسلمون منكم من الغنائم- ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

كما سمّى الله تعالى الإيمان بـ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ -وهي كلمة جامعة لكل صنوف الخير- فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

وقد بيَّن سبحانه في القرآن الكريم أن للإيمان شُعَباً وذروة، وله بَذْرَة أصيلة وجذر أصيل تتفرع عنه تلك الفروع والشعوب، ولهذا ضرب الله تعالى مثلاً للإيمان بالشجرة فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أما الكلمة الطيبة فهي كلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهي بمنزلة النواة الأولى للشجرة، وهي أصل الإيمان وعنها تتفرع جميع شُعب الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية والخلقية، وهذا معنى قوله جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾-أي في قلب المؤمن- ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ -أي ما ينشأ عنها من أعمال صالحة وأقوال طيبة، قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، وقد بيّن صلى الله عليه وسلم ذلك في أحاديث شريفة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: [الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ][1].

ولا يكمل إيمان أَحَدٍ إلّا إذا استوفى جميع شعب الإيمان؛ حتى إذا تحقق بها وصار مؤمناً كاملاً تأهل أن يرتقي إلى مقامات القرب الإلهي الخاص، ومن لم يستكمل جميع شعب الإيمان فلا حظَّ له في مقامات القرب الخاص ولا الولاية الخاصة.

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وإن من استوفى جميع شعب الإيمان وتحقق بها انتقل إلى مقام القرب الأول وهو مقام انشراح الصدر للإسلام والإيمان، ثم بعد ذلك يرتقي إلى مقام قرب الفرائض الخاص، ثم مقام قرب النوافل الخاص، ثم مقام الحكمة، ثم مقام الكمال... وهكذا.

واعلم أنه لا يمكن للمؤمن أن يرتقي في مقامات القرب الخاص إلا إذا كَمُل إيمانه بأن استوفى جميع شعب الإيمان، ولهذا جاءت الرسل كلهم يدْعون بدعوة الإيمان -بشُعَبه ومراتبه- لأنها الأساس الذي لا بد منه للإنسان حتى يتحقق بالعبودية والقرب من الله تعالى، وإن أعظم مَن جاء ببيان تفصيلي لهذه الشُّعب الإيمانية إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان من الواجب على كل مؤمن أن يعرف شعب الإيمان حتى يتحقق بها؛ اعتقاداً بالشعب الاعتقادية، وقولاً بالشعب القولية، وعملاً بالشعب العملية، وخُلُقاً بالشعب الخُلُقية كما قال صلى الله عليه وسلم:

[وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ] مع أن الحياء خُلق وليس بقول أو عمل جارحي.

أمّا شُعب الإيمان الاعتقادية فهي أساس الإيمان ولا بد منها في صحة أصل الإيمان، ومَن أخل بواحدة منها فهو كافر.

وأما الشعب القولية والعملية والأخلاقية فمن أخل أو أهمل واحدة منها فهو ناقص الإيمان، ومن كان إيمانه ناقصاً فلا يمكن أن ينال مقام القرب في الدنيا ولا في الآخرة حتى يَكْمُلَ، فإذا مات ولم يستكمل إحدى الشعب -غير الاعتقادية- فإنه لا يدخل الجنة حتى يكمل إيمانه بجميع شعبه، فإذا لم يكمل في الدنيا فإنه يتعرض لأهوال البرزخ في القبر -وذلك لأن العذاب تطهير وتطييب له- فإذا لم يَكْمُل في القبر فسيمر على أهوال الحشر، وإذا لم يكمل -بأن كان نقصه كبيراً- فسيمر على أهوال الصراط، فإذا لم يكمل فلا بد له من غمسة في جهنم يطهر بها مِن دنسه، ويكْمل بها إيمانه ويطيب فيدخل الجنة، قال تعالى: ﴿**طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ**﴾.

وسنأتي إن شاء الله تعالى على ذِكر شُعب الإيمان تفصيلاً، وأما الآن فنذكر جملة موجزة عن شعب الإيمان.

فمِن جملة الشعب الإيمانية الاعتقادية: حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوب؛ لقوله صلى الله عليه وسلم:

[لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ][1].

ولما قال عمر رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ][2] أي: الآن كَمُل إيمانك.

ومِن الشعب الإيمانية أيضاً: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم شرعه صلى الله عليه وسلم على هوى النفس وشهواتها، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم:

[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبَعاً لِما جئتُ به ثم لا يزيغ[3] عنه][4].

فلا تجعل شريعته صلى الله عليه وسلم محكومةً وهواك حاكماً؛ بل يجب عليك أن يكون عقلك وهوى نفسك تابعاً لشرع النبي صلى الله عليه وسلم.

ومِن الشعب الإيمانية أيضاً: أن يحب المؤمن لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه من الخير؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: [لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ][5]، وفي رواية: [وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ][6].

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان والنذور

[3] أي: لا يميل

[4] قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: (خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين؛ وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار، وخرَّجته الأئمة في مسانيدهم، ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني؛ وليس عنده: [ولا يزيغ عنه]). اهـ

[5] في الصحيحين في كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه

[6] سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه

ومن جملة شعب الإيمان:

أن يُسَرَّ المؤمن إذا عمل صالحاً -بتوفيق الله له-، وأن يحزنَ ويهتم إذا وقعت منه سيئة أو خطيئة أو معصية، فقد روى الترمذي عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ:

[خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ[1] فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا[2] فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.

ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ[3] حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ.

أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ[4] إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ.

عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِن الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ.

مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ[5].

مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ].

أي: إن من علامة الإيمان: أن يفرح المؤمن إذا وفقه الله لعمل الصالحات، وأن يستاء ويحزن إذا وقع في معصية أو ارتكب إثماً، وأما من لا يبالي إذا صدر منه ذنْب أو معصية فيقال: "إن هذا متهم في إيمانه؛ فإن المؤمن تسره حسنته، وتسوءه سيئته".

---

[1] وهي مكان قريب من دمشق لَمّا قدِمها يتفقد بعض الجيوش فخطب في الصحابة وغيرهم من التابعين رضي الله عنهم

[2] أي إنه يمثّل المقام ويبلّغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

[3] أي يتغير الناس بعد قرن الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم وأتباع أتباعهم

[4] أي بامرأة أجنبية عنه، ليست من محارمه

[5] أي ليلزمْ جماعة المسلمين، ولا يشذّ عن رأي جماعة المسلمين المؤمنين الكمَّل

واعلم أن الصلاة شعبة من الإيمان، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ أي: صلاتكم، كما أن الزكاة شعبة من الإيمان لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾.. الآية، فالزكاة من الإيمان؛ قال جل جلاله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ -وأول ما يشمل هذا أداء الزكاة المفروضة، والتوكل على الله تعالى شعبة من الإيمان؛ قال عز من قائل: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وذِكر الله تعالى من الإيمان، والخشية من الله تعالى ووجل القلب لذِكره سبحانه: مِن الإيمان أيضاً.

واعلم أن أهم الشعب الإيمانية وأوجبها:

إنما هو الإيمان بالله تعالى، ويشمل هذا أولاً: أن تعتقد أن الله تعالى حَقٌّ أي: واجب الوجود - كما تقدم بيانه- ثم أن تعتقد أنه سبحانه واحد لا شريك له، ولا يمكن أن تتعدد الآلهة -كما تقدم الدليل على ذلك من القرآن الكريم- ، ثم أن تعتقد أنه سبحانه متصف بالصفات العليا ومُتَسَمٍّ بالأسماء الحسنى.

وإن الصفات التي اتصف بها سبحانه والأسماء التي تسمى بها جل وعلا إنما هي صفات كمال وحُسْن على وجه لا يتناهى في الكمال والحسن، ولا يشاركه سبحانه في ذلك أحد.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ والإلحاد هو: الميل[1]، والإلحاد في أسمائه سبحانه: أن تسمِّيَه جل جلاله باسم لم يَرِدْ عنه جل جلاله ولم يَرِدْ عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل تحت أصل وارد في القرآن أو السنة، وهذا كما كان يفعله المشركون إذ كانوا يَصِفون الله تعالى بما لم يَصِفْ به سبحانه نفسه، ويسمّونه بما لم يَتَسَمَّ به جل وعلا، وهذا هو الإلحاد في الأسماء الإلهية، فلا يجوز لأحد أن يطلق على الله اسماً لم يسمِّ سبحانه به نفسه، ولم يُروَ عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

كما أن من الإلحاد في الأسماء الإلهية: أن تحرِّف الأسماء الإلهية؛ كأن تُصَغِّرَ اسماً من أسمائه عز وجل -تذكره بصيغة التصغير- كأن تقول:(الله رُحيِّم) أو (الله كُريِّم)؛ فلا يحلّ ذلك أبداً .

ومن كان اسمه: (عبد الرحيم) أو (عبد الكريم) مثلاً فلا يجوز لك أن تطلق عليه: (رُحيِّم) أو (كُريِّم) فهذا إلحاد في الأسماء الإلهية لأنك جرَّدت الاسم عن العبدية وصغّرت أسماء الربوبية وأطلقتها على العبد، إذ إن أسماءه سبحانه كاملة لا نهاية لها في الكمال فكيف تصغّرها؟!

ومن الإلحاد في الأسماء الإلهية: أن تطلق اسماً من أسمائه سبحانه على أحد من مخلوقاته كأن تطلق اسم: (قادر) أو (حكيم) أو (عليم) على من اسمه: (عبد القادر) و(عبد الحكيم) و(عبد العليم).

وإذا قلت: ألا يقال عن المخلوق: (قادر) أو (عليم) أو (حكيم)؟

فيقال: نعم؛ يقال عنه ذلك بالمعنى المخلوق، ولكنك لما أطلقت على عبد العليم اسم: (عبد العليم) ثم جردته من العبدية وأطلقت عليه اسم: (عليم) فهذا أمر لا يجوز؛ لأن (العليم) في اسم (عبد العليم) هو الله تعالى، فكيف تطلق اسم (العليم) على من هو عبد للعليم واسمه (عبد العليم)؟!

[1] انظر: (لسان العرب) مادة: (لحد)

أما إذا أردت أن تصف فلاناً بالعلم والحكمة والكرم مثلاً فلا بأس أن تقول: (فلان عليم) أو (حكيم) أو (كريم) على المعاني المخلوقة، لأنك في ذلك لم تُرِد بِهِ الاسم الإلهي.

أما الاسم الإلهي الذي سُبق بكلمة (عبد) فلا يجوز أن تحذف كلمة (عبد) منه وتطلق ذلك الاسم الإلهي على العبد.

فاحذر أن تميل في أسمائه سبحانه عن الحق، والزم ما ورد في الكتاب والسنة لأن هذه أمور اعتقادية، والله تعالى لا يغفر أن يُشرَك به؛ بخلاف الذنوب والمعاصي العملية.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وأسماؤه سبحانه أسماء صفات، وصفاته سبحانه كلها محاسن وكمالات، وكمالاته سبحانه لا تتناهى، فأسماؤه جل جلاله لا تتناهى.

وقد أشار إلى ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء:

[أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ][١]... الحديث.

وفي الحديث أن السيدة عائشة دعت بهذا الدعاء بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي] وبيّن لها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها دعت الله تعالى بالاسم الذي إذا دُعي سبحانه به أجاب[٢].

فهناك أسماء إلهية اختص الله تعالى بعلمها ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه، وهو سبحانه يسبّح بها نفسه، ويحمد بها نفسه، ويثني بها على نفسه لنفسه جل وعلا، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: [أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ].

---

[١] طرف حديث في المسند ٣٥٢٨

[٢] انظر سنن ابن ماجه كتاب الدعاء

وأما ما رواه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:[إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ][1]-وقد ورد ذِكرها في حديث شريف-[2] فهذه الأسماء من جملة الأسماء الإلهية، وقد جعل الله تعالى لها خصوصية: أن من أحصاها -أي حفظها وفهم معانيها واعتقد بها- دخل الجنة.

فقوله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ] لا يفيد حصر الأسماء الإلهية في تسعة وتسعين اسماً فقط، وذلك -ولله المثل الأعلى- كما تقول مثلاً: (إن لزيد مائة ناقة أَعَدَّها للصدقة) ولا يعني هذا أن زيداً عنده مائة ناقة فقط؛ بل هو يملك أكثر وإنما أعدَّ هذه المائة للصدقة.

وإذا بحثت في القرآن الكريم لوجدت مِن أسماء الله تعالى ما هو أكثر من تسعة وتسعين اسماً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ فـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي التي لا حد لها في الحسن والكمال، وهي صيغة تفضيل مِن (حسنة) كما تقول:(هذا حسن، وهذا أحسن)، و(هذه حسنة، وهذه حسنى) ، كـ (فاضلة) و(فُضلى).

وأسماؤه سبحانه كلها حسنى كاسم: (الغفار) و(التواب) و(الرحيم) وكذلك اسم (المنتقم) لأن الانتقام في موضع الانتقام كمال وحسن.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾: أي فادعوه بها عبادةً وسؤالاً بأن تعتقدوا بها وتؤدوها، وتعتقدوا أنها كلها حسنى لا حد لها في الحسن والكمال.

أما السؤال بأن تدْعوا الله بها فقد قال جل جلاله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الشروط وصحيح مسلم كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[2] انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد

وقال عز من قائل: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

فقد افتتح سبحانه هذه السورة بهذين الحرفين: الطاء والهاء ﴿طه﴾ وبتركيبهما صار اسماً المراد منه: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى: يا أيها الرسول الطيب الهادي[١]، لأنه صلى الله عليه وسلم طيب النفس طاهر الأخلاق وطاهر النسب، وحقّ لهذا الطيب الطاهر أن يطهّر العالم ويزكيهم ويهديهم، قال عز وجل: ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾، وقال سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ .

---

[١] قال القرطبي في تفسيره عند كلامه حول قوله تعالى ﴿يسٓ﴾: وقد سرد القاضي عِيَاض أقوال المفسرين في معنى ﴿يسٓ﴾ فحكى أبو محمد مكي أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لي عند ربي عشرة أسماء].. وذكر أن منها ﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ اسمان له صلى الله عليه وسلم.

قلت: وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إن الله تعالى أسْماني في القرآن سبعة أسماء: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ و ﴿أَحۡمَدُ﴾ و ﴿طه﴾ و ﴿يسٓ﴾ و ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ و ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ و ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾] قاله القاضي. اهـ

وقال القاضي عياض رحمه الله في (الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم): قيل: ﴿طه﴾ اسم من أسمائه صلى الله عليه وسلم، وقيل: هي حروف مقطعة لِمَعانٍ، قال الواسطي: أراد: (يا طاهر، يا هادي). اهـ ١/ ٤١

وانظر تفسير النسفي عند كلامه حول قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾، والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ١٨٣

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن لتُتعب نفسك وتُهلكها -بأن تحزن وتتحسر على الذين تدْعوهم ويعرضون-.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يحرص كل الحرص على أن تؤمن قريش ويؤمن مشركو العرب كلهم وعلى أن يؤمن أهل الأرض كلهم، فكان صلى الله عليه وسلم يدعوهم؛ فمنهم من يستجيب، ومنهم من لا يستجيب له فيحزن صلى الله عليه وسلم ويتأسف عليهم ويتحسر لأنهم لمّا خالفوه ولم يستجيبوا له فقد ألقوا نفوسهم في الشقاء الأبدي والعذاب، فكان صلى الله عليه وسلم يحزن عليهم لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، وفي هذا قال سبحانه له صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وقال سبحانه له صلى الله عليه وسلم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ -أي لعلّك مهلك نفسك لحزنك عليهم، فلا تُتعب نفسك ولا تحزن عليهم- ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي: إن نشأ هدايتهم ننزل من السماء صاعقة محرقة بحيث إذا رأوها خضعوا خوفاً وفزعاً، فلا تحزن عليهم يا رسول الله، وما عليك إلا أن تدعوهم إلى الله تعالى؛ فمن أجابك فقد سعد، ومن لم يُجبْك فلا تحزن عليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ أي: أنزلنا هذا القرآن عليك تذكرة للناس كلهم، وإن الذي يستفيد من هذه التذكرة هو الذي يخشى الله تعالى ويخشى العواقب فهو المُذَّكِّر، ولذلك قال جل وعلا: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ وأما من لم يَخْشَ ولم يُبالِ بالعواقب فلا يتذكر بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فلقد نُزّل هذا القرآن تنزيلاً تدريجياً على وجه يتقبله الناس ويفهمونه على حسب مراتبهم، ولقد نُزّل هذا القرآن ممّن خلق الأرض وأودع فيها الأسرار والخصائص، ورفع السماوات وبناها وأكملها، وإن الله تعالى الذي خلق الأرض والسماوات أراد أن يحفظ على هذا العالم نظامه وقِوامه وسعادته فنزَّل على الناس هذا القرآن الكريم، فإذا اتبعوه سعدوا وصلح أمرهم، وإذا تركوه شقوا وفسد أمرهم واختل نظام العالم من حولهم، ولهذا إذا فسد أهل الأرض فسدت الأرض وتغير نظام الكون بحيث تتساقط النجوم وتتكدر، وتطلع الشمس من مغربها وهكذا تقوم القيامة، أما إذا كان أهل الأرض بخير وصلاح فعلى قدر هذا الخير يكون انتظام العالم وبقاؤه.

فلقد خلق الله هذا الكون بما فيه من أرض وسماوات وأفلاك، ثم أسكن فيه السكان من بني آدم وجعل لهم الأرض بساطاً والسماء سقفاً عالياً، وأنزل على أهل هذه الديار هذا القرآن الكريم وأمرهم باتباعه والعمل بما فيه، فإن عملوا به سعدوا ، وإلا هلكوا وأهلكوا.

فقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ إشارة إلى سعة علمه سبحانه وحكمته وقدرته الظاهرة في خلقه للسماوات وما فيها وللأرضين وما فيها، فهذا خلقه سبحانه ظاهر لكم، وهذا كلامه سبحانه أنزله إليكم وفيه مصالحكم في دنياكم وآخرتكم.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي علا علواً لائقاً به جل جلاله، منزهاً عن الكيفية والتشبيه، ويلزم منه أنه سبحانه استولى على العرش الذي حوى جميع العوالم، وقد استولى سبحانه على عرشه ومخلوقاته برحمانيته وقدرته، وليس لغيره في خلقه سلطان، إنما السلطة والتدبير له وحده سبحانه، وكل تدابيره سبحانه في خلقه بمقتضى رحمانيته جل وعلا، ولقد وسعت رحمته كل شيء حتى البر والفاجر والمؤمن والكافر -وهذه الرحمة العامة-.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وتصرفاً وتدبيراً وخلقاً، ولا أحد غير الله ينبت شجرة لم يُرِدِ الله إنباتها، ولا أحد غير الله يخلق مولوداً لم يُرِدِ الله خلقه، وإن جحدوا ذلك فليولدوا العقيم!

وهل أحد غير الله يميت أحداً لم يُرِدِ الله إماتته؟!

إذ كم وكم من إنسان يريد قتل عدوه ولا يستطيع!

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي أن الله تعالى يعلم الجهر، ويعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر.

أما الجهر فهو: ما سمعه غيرك، والسر: ما سمعتْه نفسُك، وأخفى من السر هو: ما كَمَنَ في القلب وعرفته، وأخفى من السر: ما خَفِيَ عنك وهو فيك، إذ إن هناك أشياء في نفسك هي فيك ومنك ولكنك لا تعرفها، وستظهر مع الأيام، فما هي إلا بذور كامنة في القلب خفية عنك لا تعلمها، وسيُظهرها الله تعالى لك على مدى الأيام والأزمان.

فمَن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما ويعلم السر والجهر وما هو أخفى من السر؟

نعم إنه الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

فبعدما بيَّن سبحانه مراتب توحيده في خلقه للأشياء وعلمه بها وحكمته في تنزيل القرآن الكريم؛ بيَّن أن له سبحانه الأسماء الحسنى التي لا نهاية لها، فكل صفاته وكمالاته سبحانه لها الحسن الذي لا يتناهى.

فاسمه سبحانه: (الغفار) حَسَنٌ بل وأحسن وأحسن لأن أسماءه جل وعلا (حسنى) -صيغة تفضيل-.

وكذا اسم: (الرحيم) و(المنتقم) لأن المنتقم في موضع الانتقام هو الكمال بحدّه.

ولا يوجد في أسمائه سبحانه نقص ولا خلل ولا ما يخالف الكمال، بل أسماؤه سبحانه كلها أسماء كمال وجمال ومحاسن لا تتناهى.

ثم إن أسماءه سبحانه أسماء صفات، والصفات تابعة للكمالات، وكمالات الله تعالى لا نهاية لها، فالله تعالى لا نهاية له في ذاته ولا في صفاته ولا في شؤوناته سبحانه وتعالى.

ولقد قال جل وعلا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾ أي لا يحيطون به علماً في ذاته ولا في أسمائه وصفاته تبارك وتعالى، فمهما عرفتَ من أسمائه فهو سبحانه وتعالى أجل وأكبر.

ولقد ظهر في هذا العالم من آثار أسمائه سبحانه ما ظهر، وستظهر لك أسماء من أسمائه سبحانه في برازخ الآخرة -إذ كل عالَم يظهر فيه من آثار أسمائه سبحانه ما لا يَظهر في غيره- وسيظهر يوم القيامة من أسمائه سبحانه جملة كبيرة حتى قال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة:

[فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ] -أي: لا أقدر على ذلك الحمد- [يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ][1]...الحديث، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يُثْني على الله تعالى ويحمد الله تعالى بأسماء إلهية يفتحها الله عليه في ذلك العالم، ولم تظهر الآن لأحد.

وهناك أسماء استأثر سبحانه بعلمها واختص بها، وهو سبحانه يثني بها على نفسه، ويعظّم ويقدس بها نفْسه مِن نفسه لنفسه جل وعلا.

وكلما زادت معرفة المؤمن بأسماء الله تعالى زاد إيمانه بالله وصفاته سبحانه، ولذلك ترى أنه جل جلاله ذكر في القرآن في نهاية كل آية اسماً أو اسمين من أسمائه سبحانه ليعرّفك بكماله وجماله وجلاله جل وعلا.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

ولما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وحصل ذلك قبل أن يؤمن- لما دخل على أخته وصهره -وكانا قد أسلما- فسمعهما يقرآن القرآن الكريم استأذن عليهما، فرفعا الصحيفة خوفاً منه، فألحّ على أخته بقوّة أن تُظهر ما كانت تقرؤه فقالت له: "كيف أعطيك هذه الصحيفة وفيها كلام الله الذي لا يمسه إلا المطهرون؟ قم فاغتسل أولاً"، فقام وفعل -وكفى بهذا دليلاً على تحريم مس القرآن الكريم إلا للطاهر من الحدث الأكبر والأصغر-

ثم قرأ عمر في الصحيفة فإذا فيها قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

فَسَرَتْ روحُ القرآن الكريم في قلب عُمَرَ وفاضت عيناه بالدموع، وارتعد جسمه، وقال لصهره: "دُلّوني على المنزل الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه رضي الله عنهم فاستأذن عليه، فلما رآه الصحابة خافوا من سطوته وأن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم : "اتركوه فليَدخل، فإن كان مهدياً اهتدى، وإن كان محارباً قتلناه".

فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر والصحابة ينظرون إليه، فلما أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام صلى الله عليه وسلم وأخذ بمجامع ثوب عمر وقال: [اللّهم اهدِ عمر بن الخطاب]

فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

فلقد كانت هذه الآيات الأولى من سورة ﴿طه﴾ سبباً لإسلام عمر رضي الله عنه، وذلك لأن للقرآن روحاً إذا سرت في قلب القارئ أو السامع أذعن صاحبه وعرف الحق؛ فإن كان منصفاً آمن واعترف بالحق ، وإن كان ظالماً متكبراً عارض وجحد.

وعلى هذا فإذا كان القلب سويّاً معتدلاً وسرت إليه روح القرآن: اعترف وآمن، وأما إذا لم يكن في القلب قابلية واستعداد لتقبّل روح القرآن -بسبب كبر صاحبه وعناده- فإنه مهما عرف وسرت روح القرآن في قلبه فلن يعترف ولن يؤمن -وذلك لعدم استعداد قلبه لا لنقص الروح القرآني-، وكما أن هذا في القلوب فهو في الأجسام فإن المستعد لتقبل الروح يحيا وإلا فلا.. كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ**﴾.

فالجسم السوي مستعد لتقبُّل الروح فيحيا، وكذلك القلب المستعد لتقبل الروح القرآني إذا سرت فيه فلا بد أن يحيا؛ كما كان من عمر رضي الله عنه إذ آمن وصار صحابياً كبيراً ثاني الخلفاء الراشدين الذين شهد لهم رسول الله بالرُّكْنية والمقاميّة في الهدي كما قال صلى الله عليه وسلم: [فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.

وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ][2].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] ارجع إلى (الأحاديث المختارة) للضياء المقدسي ١٤٠/٧ و(إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة) للحافظ البوصيري ١٦٦/٧ و(دلائل النبوة للبيهقي) ٢١٩/٢ و(سيرة ابن إسحاق) الصفحة ٦٢

[2] طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السنة

المحاضرة التاسعة:

حول سورة الإخلاص

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الإيمان برب العالمين جل وعلا هو أمر ثابت بالفطرة، وثابت بالبراهين المعقولة المحكمة، وثابت بالآيات المشهودة المرئية، ولا شك أنه ليس بعد العِيان والبرهان من دليل وبيان؛ لأن الأدلة على إثبات الحقائق إنما هي البرهان العقلي أو أدلة العيان المشهودة.

فمِن البراهين والأدلة العقلية القاطعة التي جاء بها القرآن يثبت فيها حقائق الإيمان بالله تعالى وأنه جل جلاله حق واجب الوجود وأنه سبحانه أحد: قوله سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾.

وتسمى هذه السورة: (سورة الإخلاص) لأن فيها إخلاص التوحيد لرب العالمين، وتسمى أيضاً: (سورة التجريد)[1]، وهي تبيّن بياناً واضحاً قاطعاً أن الله جل جلاله حق، وأنه سبحانه أَحَدٌ.

وإن هذه السورة الكريمة نزلت مرتين، مرة في مكة المكرمة والثانية في المدينة المنورة، إذ لما كان صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة سأله المشركون: (صِفْ لنا ربك) -وفي رواية: (أُنسب لنا ربك)- فنزل قول الله تعالى : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

---

[1] انظر تفسير الإمام الرازي عند كلامه حول هذه السورة الكريمة.

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة سألته اليهود: (صِفْ لنا ربك) -أي صِف لنا ربك الذي تدعو الناس إلى توحيده وعبادته- فنزلت أيضاً: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1].

وجاءت السورة مفتتحة بـ ﴿قُلۡ﴾ لتدل على أنها جواب لسؤال، والمعنى:

قل لمن سألك يا محمد، وقل لمن سوف يسأل عن ذلك إلى يوم الدين قل له: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ولا تظنن أن هذا دليل نقلي لا مجال للتعقل فيه أو التفهم فيه؛ فإن القرآن الكريم جاء بالحكم وبيان الحق، قال عز من قائل: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾، وقال جل جلاله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فآيات القرآن الكريم مُحْكَمَة، وفيها إفحام العقول، وإقامة الحجة والبرهان، والدليل الذي لا يقبل الرد.

وليست قضايا القرآن قضايا تسليمية أو عاطفية؛ إنما هي قضايا مقبولة معقولة تقيم الحجة على من تعقَّل وتدبَّر فيها، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

فجاء هذا القرآن يعالج العقول ويقاومها بإقامة الحجة والدليل القاطع.

---

[1] قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات بِسَنَدٍ حسن عَن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: "صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُ" فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.. إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: [هَذِهِ صِفَةُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ].
وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ" فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ.. الْحَدِيث، وَهُوَ عِنْد ابن خُزَيْمَةَ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ. اهـ ٣٥٦/١٣

فلما قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَبَيَّنَ في كل كلمة من هذه الكلمات معانٍ من التوحيد على وجه محكم.

ومعنى أنه سبحانه: ﴿أَحَدٌ﴾ أي: لا مثيل له جل جلاله ولا نظير له في ذاته ولا في صفاته، ويلزم من هذا أنه سبحانه لا يُشْبه خلقه، ولا الخلق يُشْبهونه، فهو عز وجل أحد غير مركَّب، ولا مبسَّط، لأن التركيب والتبسيط من صفة المخلوقات، والله تعالى أَحَدٌ، لا شبيه ولا نظير له جل وعلا.

وربما تزعم أنك واحد، لكنك مركَّب من كذا وكذا عضواً وجزءاً وذرة!

ثم إنه سبحانه ﴿أَحَدٌ﴾ أي: لا ثاني له، ولا سابق له، ولا لاحِقَ له، أي: لا ثاني له سابق عليه ولا معه، ولا ثاني لاحِقٌ له، فلا إله قبله، ولا إله معه، ولا إله بعده سبحانه وتعالى.

فإنه لا إله إلا الله فيما مضى وفيما هو الآن وفيما هو أبد الآبدين.

أما إذا وسوس لك شيطانك الإنسي أو الجني: (فمن خلق الإله)؟

فقد علَّمَنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الجواب ولَقَّنَ الحُجَّة لمن سُئل عن ذلك.

جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ] -أي ولا سيما في آخر الزمن بدعوى العلم والفهم- [حَتَّى يُقَالَ هَذَا: خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟] -وفي رواية:[لَا يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟[١]]- [فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ][٢].

---

[١] مسند الإمام أحمد ٩١٩٩

[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي رواية عند الإمام أحمد: [إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: (اللَّهُ) فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟

فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ :(آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) فَإِنَّ ذَلِكَ يذْهبُ عَنْهُ][1].

وفي رواية لأبي داود: [فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ][2].

فإن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دليل قاطع يدفع هذه الشبهة، وذلك لأن الله تعالى ﴿أَحَدٌ﴾، فلو زَيَّن الشيطانُ لأحدهم أن هناك مَن خلق هذا الإله، وقبْله إله خَلَقَه وقبْله إله خلقه وهكذا ...فهذا يعني أن هناك آلهة لا أول ولا نهاية لها، وهذا التصور باطل وهذه الوسوسة باطلة لأنه يقال:

إذا كان الأمر لا نهاية له فكيف انتهى الذي ما لا نهاية له حتى وصل الدور إلى هذا الإله الحالي -والذي أنت أثبتَّه الآن-؟!

لأن الزعم بأن الإله قبْله إله سابق له خَلَقَهُ؛ هذا يعني أن هناك ما لا نهاية من الآلهة.

ومعنى: (ما لا نهاية) أي: لا أولَ ولا آخرَ، فكيف انتهى الأمر بما زعمتَ من الآلهة إلى هذا الإله الأخير -وأنت تزعم بما لا نهاية له من الآلهة-؟!

فإن زعمتَ أنه سينتهي الأمر إلى إله قبل الكل هو المعتبر -وزعمك هذا يعني أن الدور انتهى عنده، وأنه خالق غير مخلوق، ومَن بعده كلهم مخلوقات- فهذا يعني أنهم ليسوا بآلهة.

---

[1] المسند ٢٥٠٠٦

[2] سنن أبي داود كتاب السنة

وهكذا تجد لدى المحاكمة العقلية أن هذا الزعم باطل، ولا بد أن ينتهي الأمر بهذا العالَم إلى أن هناك خالقاً واجب الوجود، وهو غير مخلوق، قديم لا أول له، أَزَلي لا آخِر له، استند العالم إلى قدرته وقيّوميته، وهو ليس من جنس العالَم، ولو كان من جنس العالَم لكان مخلوقاً مثلهم، لكنه ليس بمخلوق، بل هو سبحانه واحد أحد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وإذا كان الواحد العددي ليس قبله أحد -إذ إنك تبدأ العد من الواحد، وإذا سئلت عن ذلك قلت: إنه ليس قبل الواحد أحد- إذا كان الواحد العددي ليس قبله أحد، فما بالك بالواحد الحقيقي سبحانه وتعالى؟!

كما أن الله تعالى ليس واحداً عددياً وإنما هو واحد حقيقي؛ لأن الواحد العددي أمر اعتباري، فلو كان عندك عدة من الأقلام: أزرق وأسود وأحمر وأخضر، وبدأت بعدِّها مِن الأسْود لقلت عنه: (واحد) ولَقُلْتَ عن الأزرق بأنه (الثاني) مثلاً وهكذا ...

ولو ابتدأت العد من الأزرق لقلت عنه: (واحد)، وعن الأسود إنه (الثاني)... وهكذا يتبين لك أن الواحد العددي واحد اعتباري وليس واحداً حقيقياً،

ومع ذلك فإن الواحد العددي ليس قبْله أحد، فما بالك بالواحد الحقيقي الذاتي الواجب الوجود وهو الله تعالى وحده؟!

وقد يقال: ما دام أنه سبحانه حق واجب الوجود فلمَ لا نعرف حقيقته؟

الجواب: لقد بيَّن سبحانه ذلك بقوله: ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي له الغيب المطلق مِن حيث إدراك كُنْهه ومعرفة ذاته سبحانه، ولا يمكن للمخلوق أن يحيط علماً بكنه الذات الإلهية؛ لأن المخلوق مقيَّد ومحدود ومُتَناهٍ ، فكيف يحيط مُتَناهٍ بمن لا يتناهى؟!

على أن الإنسان نفسه لا يمكنه أن يحيط علماً بذاته، ولو قيل لك: من أنت؟ فقلتَ: (أنا بجسمي) لَدَلَّ ذلك على عظيم جهلك؛ لأنك بروحك لا بجسمك، إذ لو فارقتْ روحُك جسمَك لما بقي له وجود أو اعتبار.

فالصواب أنك بروحك، وجسمُك تابع لروحك، فيقال:

وهل أدركت معرفة حقيقة روحك؟

-مع أن روحك أمر مِن أمر الله تعالى أي مِن عالم الأمر الملكوتي الرباني.

فإذا كنت أيها الإنسان عاجزاً عن إدراك كنه ذاتك، أو حقيقة روحك، فكيف بك تريد أن تبحث عن حقيقة وكنه رب العالمين؟!

ولهذا يجب أن تعلم أن الله تعالى لا يمكن أن يُحاط به علماً، ولا يمكن أن يعرف المخلوق حقيقة ذات رب العالمين، قال جل وعلا:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾.

وإنما تَعَرّفَ سبحانه إلى عباده بأسمائه وصفاته، وأَشهدَهم مظاهرها في جميع الكائنات، وفي أنفسهم، وفي العالم مِن حولهم، حتى رأوا آثار صفات الله عِياناً.

أما معرفة حقيقته سبحانه فلا يعلم حقيقته إلا هو سبحانه.

وفي الدعاء: (يا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو)[1].

ولذلك فإن بدء الاعتقاد بالله تعالى ﴿هُوَ﴾ أي هُوَ سبحانه له الغيب المطْلق الذي لا يمكن لمخلوق أن يحيط معرفة بذاته أو حقيقته.

---

[1] قال الشيخ الإمام في كتابه (أدعية الصباح والمساء) في الصفحة رقم ٢٧:
وعن إبراهيم بن خَلَّاد: (نزل جبريل على يعقوب عليهما الصلاة والسلام فشكا إليه ما هو فيه فقال: ألا أُعلمك دعاءً إذا دعوتَ بِه فَرَّج الله عنك؟
قل: يا من لا يعلم كيف هو إلَّا هو، ويا من لا يبلغ قُدرتَه غيرُه، فَرِّج عني) -فأتاه البشير. اهـ وعزاه الشيخ الإمام لابن أبي الدنيا.

ويقول سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ أي لا تدركه الأبصار القلبية -وهي البصائر- من حيث معرفة الحقيقة والكنه الإلهي، كما لا تدركه الأبصار الحسية إدراك إحاطة -وإن كان المؤمنون يرون ربهم في الجنة لكنهم لا يحيطون به تبارك وتعالى- وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾.

فلا يستطيعُ أحد مِن خلقِ الله أن يحيط علماً بحقيقة رب العالمين، وإنما عَرَفُوه سبحانه بما أظهره لهم من الأسماء والصفات التي أشهدهم إياها في المخلوقات، وفي التجليات، وفي المشاهدات، وهذا قوله سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾.

فمن نظر في السماوات والأرض رأى فيها آثار قدرة الله سبحانه التي تعجز قدرة البشر عن أن يخلقوا مثلها، ورأى حكمة الله تعالى في هذه المخلوقات، واستدل على علمه سبحانه، وأن علمه سبحانه فوق علم العلماء، وهكذا سائر الصفات، كما أشار إلى هذا جل جلاله بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

أي انظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر وحياة الأرض، وإذا كنت لا ترى بعينك ذات الحق سبحانه وتعالى فلا تنكر ذات الله ما دامت آثار صفاته وكمالاته ظاهرة للعيان، وسوف تُنقَل إلى عالم ترى فيه ذات الحق سبحانه رؤية حقيقية ولكن دون أن تدرك ذاته أو تحيط برؤيته جل وعلا.

وإليك مثالاً يوضح ذلك:

إذا كنت جالساً تحت قبة أو خيمة وأشرقت الشمس وظهرت فإنك تثبت وجودها من خلال رؤيتك لأنوارها -وإن لم تر عينُك عينَ الشمس- كما أنك تثبت وجود الشمس من خلال رؤيتك لآثارها ونورها -وإن حجبتك عنها السحبُ والغيوم فلم تر ذاتها بعينك-.

وهكذا -ولله المثل الأعلى- فالإنسان موجود في دار الدنيا ومحجوب عن رؤية ربه بعين بصره لعدم تحمله ذلك في هذه الدار، ولأنه محجوب عن ذلك بالحجاب النفساني، فإذا ارتحل الإنسان عن هذه الدار إلى دار البقاء وزال حجابه النفساني فإنه يرى ربه جل جلاله، قال سبحانه: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾.

أما إذا كان حجابه كثيفاً فلا بد أن يتلطف ويتطيب في برازخ الآخرة حتى يصير أهلاً لرؤيته سبحانه، وهذا كمن خرج من تحت القبة والخيمة ليرى بعينه ذات الشمس بعد أن كان يرى آثارها.

فالمانع عن رؤية العبد ربه في الدنيا بعين بصره هو ضعفه وعدم تحمله من جهة، ومن جهة ثانية حجاب العبد الجسماني والنفساني -ويتمثل هذا في مخالفته أو ارتكابه الصغائر أو صغائر الصغائر.

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا حجاب يحجبهم -إذ لا ذُنوب لهم لأنهم معصومون بعصمة الله تعالى عن الخطأ والخطيئة- ولكنهم في ضعف عن رؤية رب العالمين جل وعلا، قال عز من قائل: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ فلم يتحمل موسى عليه السلام أن يرى ربَّه في هذا العالم.

ولم يَرَ ربَّه في هذه الدار إلا سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أعطاه الله قوة في البصر والبصيرة ورأى ربه جل وعلا .

وقد سئل صلى الله عليه وسلم: [هل رأيتَ رَبَّكَ؟

فقال صلى الله عليه وسلم: رأيتُ نوراً] [1] فالتجلي كان بالنور الأعظم عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى.

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها عن سيدنا علي كرّم الله وجهه ورضي عنه

وقد بيّن سبحانه موقف رسوله صلى الله عليه وسلم عندما تجلى عليه بالرؤية فقال جل وعلا: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ -أي من أنوار الله تعالى- ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ لأن النور الباهر إذا توجه على إنسان فهو بين أمرين: إما أن يحار ويتعب، وإما أن يجاوز المنظور إليه بالالتفات، فلما قال سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ دل ذلك على القوة الإلهية الكبيرة التي خصّ الله تبارك وتعالى بها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بحيث ثبت أمام ذلك التجلي.

أما الدليل على رؤية المؤمنين الكمّل أهل الصفاء والنقاء الدليل على رؤيتهم ربهم جل جلاله في أول برازخ الآخرة فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

[لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي؛ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا[١].

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا] -أي: بغير حجاب- [فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً.

قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ.

قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾.

---

[١] وقد سعى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أداء ديونه وبارك الله لجابر رضي الله عنه في محصوله كما في صحيح البخاري كتاب المغازي

فقد رأى عبد الله بن حرام رضي الله عنه[1] رأى رب العزة جل وعلا وكلّمه كِفاحاً، وهكذا قد يكرم الله كثيراً من أوليائه برؤيته في عالم البرزخ، وذلك لصفاء نفوسهم وطهر قلوبهم رضي الله عنهم، ويعطيهم قوة أشد مما كانوا عليه في الدنيا فيرون ربهم تبارك وتعالى.

أما عامة المؤمنين على اختلاف مراتبهم، فإنما يرون رب العالمين في عالم الجنة، وأما الأنبياء عليهم السلام وأكابر الأولياء رضي الله عنهم فإنهم يرون ربهم لما يصيرون في أول برازخ الآخرة، ومن ذلك ما ورد عن أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكِنْدِيِّ - وهو من تلامذة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه- أنه قال:

(رَأَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي النَّوْمِ فَقُلْتُ: مَا صَنَعَ اللَّهُ بِكَ؟

قَالَ: غَفَرَ لِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ ضُرِبْتَ فِيَّ[2].

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَبِّ.

قَالَ: يَا أَحْمَدُ؛ هَذَا وَجْهِي فَانْظُرْ إِلَيْهِ، فَقَدَ أَبَحْتُكَ النَّظَرَ إِلَيْهِ)[3].

---

[1] هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي، والد جابر بن عبد الله الصحابي المشهور رضي الله عنهما.
كان نقيب بني سلمة هو والبراء بن معرور رضي الله عنهما، معدود في أهل العقبة وبدر، واستشهد في أُحُد، ودفن وعمرو بن الجموح رضي الله عنهما في قبر واحد.
ثبت ذِكره في الصحيحين من حديث ولده قال:[لما قتل أبي يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه] ... الحديث وفيه قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه].
وروى مالك في الموطأ عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما كانا قد حفر السيل عن قبرهما وكانا في قبر واحد مما يلي السيل، فحفر عنهما فوُجِدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما وضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأمطيت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين الوقتين ست وأربعون سنة، رضي الله عنه وأرضاه. اهـ
انظر (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ٢٩١/١ وانظر (الإصابة في معرفة الصحابة) ١٥٨/٢ و(أسد الغابة) ٣٤٣/٣

[2] وذلك يوم مِحنة مسألة الزَّعم بخَلْق القرآن

[3] انظر (طبقات الحنابلة) لابن أبي يعلى الصفحة ٧ و(تاريخ دمشق) لابن عساكر٣٤١/٥ و(سير أعلام النبلاء) للذهبي ٣٤٩/١١

وَقَالَ عَاصِم الْجَزرِي: (رَأَيْت فِي النّوم كَأَنِّي لقِيت بشر بن الْحَارِث فَقلت: مِن أَيْن يَا أَبَا نصر؟

فَقَالَ: مِن علّيين.

قَالَ: فَقلت لَهُ: مَا فعل أَحْمد بن حَنْبَل؟

قَالَ: تركته السَّاعَة مَعَ عبد الْوَهَّاب الْورّاق بَين يَدي الله تَعَالَى.

قلت لَهُ: فَأَنت؟

قَالَ: عَلم اللهُ قلَّة رغبتي فِي الطَّعَام فأباحني النّظر إِلَيْهِ)[١].

وعلى هذا فإن الأبصار لا يمكن أن تدرك ولا يمكن أن تحيط برب العالمين لأنه سبحانه ليس له نهاية، والمخلوقات متناهية، فكيف يحيط المتناهي بمن لا يتناهى؟!

فلا يمكن للمخلوق أن يحيط علماً بمن لا يتناهى، ولا أن يحيط رؤية ولا قدرةً بمن لا يتناهى، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: إنه سبحانه محيط بكل شيء علماً وقدرة وملكاً وتصرفاً وتدبيراً، وأنى للمخلوق أن يخرج من حِيطته سبحانه حتى يحيط به جل وعلا؟!

ومَن حاول ذلك فقد حاول مستحيلاً، ومِثاله كمن حاول إفراغ البحر أو احتواءه في ركوة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وإنما علموا من أسمائه وكمالاته كما علّمهم سبحانه على حسب استعداد كل إنسان.

---

[١] انظر(العاقبة في ذِكر الموت) لعبد الحق الإشبيلي ٢٢٦ و(تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ٢٩/١١

وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي لا تدركه أبصار العيون -وإن رأته في العوالم كالبرزخ وغيره- ولا تدركه البصائر القلبية -وإن شاهدته في العوالم- وهذا لا ينافي أن أهل الجنة يرون ربهم جل جلاله فهو سبحانه يُرى ولا يُدرك- أي لا يُحاط به رؤية، ولا يُدرك معرفةً من حيثُ الكُنْهُ والذات الإلهية.

وإذا كان الإنسان عاجزاً عن رؤية السماء رؤية إحاطة، وعاجزاً عن رؤية الشمس رؤية إدراك وإحاطة -وهما مِن خلقِ الله تعالى- فهو من باب أولى أشد عجزاً عن رؤيته رب العالمين رؤية إحاطة لأنه سبحانه لا يتناهى، وكيف يحيط المتناهي بمن لا يتناهى؟!

ويقول سبحانه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾- أي عليها النَّضار والبهجة والجمال- ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾.

فقوله جل وعلا: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ -أي يوم القيامة - فيخبر سبحانه أن المؤمنين سيرون ربهم عِياناً يوم القيامة.

فإذا انتقل المؤمن إلى البرزخ -وعنده القوة والاستعداد لأن يرى ربه- فإنه يرى الله جل وعلا، وإذا لم يكن عنده ذلك -بأن كانت آثار الذنوب مخيّمة عليه- فإن تطهَّر منها في البرازخ فإنه يرى ربه في عالم الحشر، وإذا انتقل إلى المحشر وعليه آثار الذنوب ولم يتطهر منها فإنه يرى ربه في عالم الصراط وهكذا .... إلى أن يدخل الجنة، وجميع أهل الجنة يرون ربهم لأن الجنة لا يدخلها إلا طيب، قال تبارك وتعالى: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وإن الإنسان يتطهر من الذنوب على مد العوالم التي ينتقل فيها، وإذا لم يطهر من ذنوبه وسار على الصراط فلا بد له من غمسة في جهنم حتى تُذهب عنه الخبث والفساد ثم يدخل الجنة طيباً طاهراً.

وحين يتجلى رب العزة على أهل الجنة فإنهم يرونه سبحانه عِياناً، ولكنهم لا يدركونه بصراً -بمعنى أنهم لا يحيطون به رؤية كما تقدم-.

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه [أَنَّ النَّاسَ] يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ][1]... الحديث، أي: ترون ربكم يوم القيامة رؤية ظاهرة جلية لجميع أهل الجنة بلا خفاء ولا تزاحم ولا تكلُّف في رؤيته سبحانه، وكلٌّ مِن أهل الجنة يرى ربه على حسب إيمانه ومقامه، لأن كلاً ينظر إلى ربه سبحانه بمنظار نور إيمانه.

وقد أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: [هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟

وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟][2]

أشار إلى السحاب التي حجبت الإنسان عن رؤية عين الشمس ولكن الشمس موجودة -بدليل نورها الظاهر- وكذلك فإن الحق سبحانه مُتَجَلٍّ دائماً؛ ولكن ضعف الإنسان وحجابه النفساني حالا بينه وبين رؤية الحق عياناً، حتى إذا زال الحجاب النفساني وطابت النفس وانتقل صاحبها إلى عالم أقوى انكشف عنه الغطاء ورأى ما لم يكن يراه، حتى رأى ربه جل وعلا، قال عز من قائل: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾.

[1] صحيح البخاري كتاب الأذان واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وجاء في الحديث عَنْ جَرِيرٍ رضي الله عنه قَالَ:

[كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا][1] أي: أعِدّوا أنفسكم لرؤية رب العالمين بكثرة السجود له تعالى والصلاة له جل جلاله لأنها أهم الأعمال الصالحة.

وإن وجه المناسبة في أن من واظب على الصلاة في أوقاتها فقد أعد نفسه لرؤية الله تعالى: أن الصلاة وقوف بين يدي رب العزة ومناجاته سبحانه والتقرب منه؛ وإن من شاهد بقلبه ربه في الدنيا -وذلك في صلواته- فقد أعد نفسه وهيأها لأن يرى ربه بعينيه يوم القيامة.

وروى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟]

-أي: أعطاهم سبحانه حتى أرضاهم، إلا أن رضا كل إنسان على حسبه لأن الاستعدادات والقابليات مختلفة؛ فالعطايا مختلفة، وإن أعظم خلق الله علماً ومعرفة وهمّة ورغبة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى له صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ**﴾- [قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ][2] وهذا زيادة فضل منه سبحانه.

---

[1] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب المساجد مواضع الصلاة

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وإن الله تعالى لما يتجلى على أهل الجنة بالرؤية فإن ذات كل واحد منهم ترى ربها لأن كل ذرة في العبد مربوبة له سبحانه، وهو جل جلاله رَبُّها، وهي تحب أن ترى ربها وخالقها؛ فلها حظ من نعيم رؤية رب العالمين تبارك وتعالى.

ومن هنا قال بعضهم[١]:

إِذا ما بَدَتْ ليلى فَكُلّيَ أَعيُنٌ ... وإنْ هيَ ناجَتْني فَكُلِّي مسامِعُ

فيسري نعيم الرؤية في جميع ذراتهم وأجزائهم.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[١] القائل هو سيدي عمر بن الفارض سلطان العاشقين، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، العارف المحب، المنعوت بالشرف، صاحب الديوان المعروف الفائق، والشعر الرائق، ولد رضي الله عنه في القاهرة، واشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره، وتوفي سنة ٦٣٢ هـ وعمره ٥٦ عاماً، ودفن بجوار جبل المقطم فى مسجده المشهور، رضي الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا به.

المحاضرة العاشرة:

حول تفسير سورة العلق

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد اشتمل القرآن الكريم على علوم كثيرة لا يمكن حصرها، ومن جملتها -بل ومن أعظمها-: العلم بالله تعالى وبأسمائه وكمالاته سبحانه وحقّيّة وجوده جل جلاله.

كما ذكر سبحانه في القرآن الكريم قضايا الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية والخُلُقية، وبيَّن ذلك كله سبحانه أحسنَ بيان وبأدلّ برهان.

والأدلة إنما هي نوعان: دليل البرهان، ودليل العِيان، وليس بعد البرهان والعيان من بيان وتبيان، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في تثبيت العقائد الإيمانية وهي أن يذكر الأدلة العيانية، والأدلة البرهانية العقلية.

فمن جملة ما ذكره القرآن بأدلة عقلية برهانية وأدلة عيانية: بيان أن الله تعالى حق -بمعنى أنه جل جلاله واجب الوجود- وأنه سبحانه واحد أحد، وأنه سبحانه مُتَسَمٍّ بالأسماء الحسنى التي لا نهاية لها، وأنه سبحانه واحد في أسمائه وصفاته، لا شريك له، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي أنه سبحانه له الأسماء الحسنى لا يشاركه فيها غيره، وأسماؤه سبحانه كلها حُسنى أي في غاية الحسن والكمال والجمال، بل إن حُسنها وكمالها لا نهاية له، فهو سبحانه وتعالى [العليم]؛ وعلمه لا يتناهى، ولا شريك له في علمه، وهو تبارك وتعالى [القدير]؛ وقدرته لا تتناهى، ولا شريك له في قدرته، وهو جل جلاله [السميع]؛ وسمعه لا يتناهى، ولا شريك له في سمعه، وهكذا في كل أسمائه وصفاته جل وعلا.

وإن أسماءه سبحانه لا تتناهى، ومن جملتها تسعة وتسعون اسماً لها خصوصية: [أن من أحصاها دخل الجنة]، وهناك مِن أسمائه سبحانه ما ظهرت آثارها في العوالم الماضية، ومنها ما يظهر في هذا العالم، ومنها ما سوف يظهر في العوالم الأخروية، ومنها ما سيظهر في عالم الجنة ومنها ومنها ... فلقد ظهر في هذا العالم من أسمائه سبحانه اسم: [الخالق] و[البارئ] و[المُصَوِّر] و[الرّزّاق] و[العليم] و[القدير] و[الرّحمن] و[الرّحيم] وغيرها، ولكن هناك أسماء لم يظهر أثرها الآن وإنما سوف تظهر آثارها في العوالم الأخروية، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: [أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي][١].... الحديث، فهذا الحديث الشريف يدل على أن أسماءه سبحانه لا تتناهى، فهناك أسماء ذكرها سبحانه في الكتب الإلهية، وهناك أسماء علّمها سبحانه رُسُلَه وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وهناك أسماء اختص الله بها واستأثر بعلمها، وأسماء سمّى بها نفسه أي أنه سبحانه يثني بها على نفسه ويحمد بها نفسه ويسبّح بها نفسه لنفسه سبحانه وتعالى.

وفي كل عالم من العوالم يُظهِر الله آثاراً من آثار أسمائه سبحانه.

وقد جاء في حديث الشفاعة قوله صلى الله عليه وسلم:

[فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ][٢]أي أنه صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى بأسماء إلهية ويثني بها على الله تعالى، وهو صلى الله عليه وسلم لا يعْلمها الآن ولكن الله تعالى يلهمه إياها ويعلّمه في ذلك العالم تلك الأسماء والمحامد فيحمد صلى الله عليه وسلم بها ربَّ العالمين سبحانه [يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ][٣]...الحديث.

---

[١] طرف حديث في المسند ٣٥٢٨

[٢] أي: لا أقدر على ذلك الحمد الآن

[٣] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي رواية: [فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي][1].. الحديث.

وفي الحديث أن السيدة عائشة رضي الله عنها دعت بهذا الدعاء بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي] وبيّن لها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها دعت الله تعالى بالاسم الذي إذا دعي سبحانه به أجاب[2]، وكل هذا يدل على أن أسماءه سبحانه لا نهاية لها.

واعلم أن الأسماء الإلهية على مراتب -وذلك من حيث الشمول والسّعة، وإن كانت كلها لا حد لها ولا انتهاء- فهناك اسم أوسع من اسم، وكلها لا نهاية لها، ولكنها كالدوائر، وإن أعم وأجمع وأعظم الأسماء الإلهية هو اسم: ﴿ٱللَّهِ﴾ جل جلاله.

ومن أسمائه سبحانه: اسم (الرب) -على الإطلاق-، ولا يطلق اسم (الرب) إطلاقاً إلا على الله جل وعلا، فهو سبحانه (الرب) بمعنى الخالق والمالك والمربّي والسيد، وجميع هذه المعاني ثابتة له سبحانه، فهو جل جلاله الخالق للأشياء كلها، وهو المالك لذوات الأشياء، وهو المربي والمُمدّ لها، وهو السيد بالسيادة الذاتية المطلقة لأن جميع الخلق عباد له سبحانه.

كما أن اسم (الرب) يدل على الثبات والبقاء والدوام، فجميع الكمالات اللائقة بالله سبحانه ثابتة له جل جلاله أزلاً أبداً بلا انتهاء ولا ابتداء ولا فناء ولا تغيُّر.

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] انظر سنن ابن ماجه كتاب الدعاء

وقد ذكر سبحانه مِن مظاهر ربوبيته وآثار تربيته للعالم ومالكيته وتصرفه وتدبيره لخلقه العائدة إلى حضرة الربوبية فقال تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.

فلقد ذكر سبحانه في هذه السورة آثاراً متعددة من تصرفات اسم (الرب) في المربوبين وأثر هذا الاسم في المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ أما معنى الفلق: فاعلم أنه على وزن (فَعَلْ) بمعنى المفعول فقوله عز من قائل: ﴿**بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾ أي الخلْق -بمعنى المخلوقات- كما يقال في اللغة: (القَبَضُ) ويراد به: المال المقبوض، ويقال: (شِعر القَصَصُ) ويراد به: الشعر المقصوص.

فالفلق هو الشيء المفلوق أي المخلوق، فالفلق أي الفليقة وهي الخليقة، ولكنه سبحانه ذكر هنا الخلق بكلمة ﴿**ٱلْفَلَقِ**﴾ ليبيّن أنه سبحانه يخلق الشيء من الشيء، وليبين وجوه تصرفه في خلقه، فهو سبحانه يفلق الشيء عن الشيء ويخلق الشيء من الشيء حتى يريك عظمة قدرته سبحانه وتَعْلَم عظمة حكمته وعلمه سبحانه.

لقد أشهدك سبحانه هذا الانفلاق بعينيك، وأقام لك البرهان على ذلك فكيف تنكر ربوبيته جل وعلا؟!

وكيف تنكر أنه جل جلاله رب الفلق -أي الخلْق- وقد أشهدك أنه سبحانه يفلق الشيء عن الشيء ويخلق الشيء من الشيء؟!

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ أي الفليقة وهي الخليقة التي فلقها الله شيئاً من شيء، شيئاً استخرجه من شيء، وشيئاً من شيء... وهكذا حتى انتهى أمر العالم الشهودي المادي إلى الماء الأول الذي قال فيه جل وعلا: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ وإن ذلك الماء جسم لطيف، ولا بد للجسم من روح، وإن روح ذلك الماء إنما هو نور الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وسلم كما تقدم[1].

وعلى هذا فقد خلق الله سبحانه سائر الأشياء من الماء وفلقها عنه شيئاً بعد شيء، وذلك الماء هو ماء الحياة الذي حوى جميع العناصر التكوينية، أما هذا الماء المعروف الذي نشربه فهو أحد عناصر الحياة وليست الحياة متوقفة عليه فقط إذ لا بد لك من هواء وغذاء وباقي العناصر التكوينية الأربعة، أما ذاك الماء الذي خُلقت منه الأشياء ففيه جميع عناصر الحياة والتكوين، فلقد خلق الله تعالى السماوات والأرض من الماء، قال تعالى:

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ أي جملة في الماء ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ -أي: فلقناهما- ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ -أي: من الماء الذي كانت السماوات والأرض رتقاً جملة فيه؛ جعلنا من هذا الماء- ﴿كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

---

[1] كما في الحديث الذي رواه الإمام عبد الرزاق في (مصنّفه) عن جابر رضي الله عنه: [قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أوّل شيء خلقه الله قبل الأشياء.
قال صلى الله عليه وسلم: يا جابرُ إن الله تعالى خَلَقَ قَبْلَ الأشياء نور نبيّك مِن نوره] .... الحديث كما في (المواهب) وشرحها، و(كشف الخفا) وغير ذلك.
وانظر تخريج هذا الحديث الشريف مفصلاً وموسعاً في كتاب: (إتحاف المحبين بذِكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه) لابن الشيخ الإمام سيدي العلاّمة الشيخ محمد محيي الدين سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه، وذلك في الصفحة رقم ٣٢٧ حتى الصفحة ٣٣٢.
ويمكنك تحميل الكتاب من الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام www.srajalden.com من قسم: مؤلفات الإمام -المؤلفات المكتوبة

فلقد كانت السماوات والأرض ﴿رَتْقًا﴾ أي مجملة في الماء، ثم فتقها سبحانه أي فلقها وفَصَّلها بأن أزبد الماء فخلق منه عالم الأرض الكثيف، وتبخر بقدرة الله فخلق سبحانه من بخار الماء السماوات السبع العالية، ثم فصل سبحانه الأرض إلى سبعة أراضٍ، وكذلك فصل سبحانه السماوات إلى سبع سماوات ثم خلق ما فيها، فهذا فتق بعد رتق، وهذا فلق بعد إجمال.

فالسماوات والأرض من جملة عالم ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ أي: من جملة عالم الفليقة التي فلقها الله من شيء آخر، ثم إن الله سبحانه فَلَقَ الأرض عن حَبٍ ونبات وعن بشر وعن شجر وعن معادن ومياه وعن أمور كثيرة، وإن الإنسان من جملة الفليقة -أي الخليقة- فقد خلقه الله تعالى شيئاً من شيء؛ فخلقه الله تعالى من أرحام أنبت فيها ذاك الماء المغروس -وهو ماء النطفة الذي فلقه الله من صلب ظهور الآباء- ولو أنه سبحانه لم يفلق صلب ظهور الآباء لَمَا تفجر الماء ولَمَا نزل إلى الرحِم.

وهكذا ترى أن كل إنسان قد خلقه الله ممن قبله حتى ينتهي الأمر إلى آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من تراب الأرض، ولقد فلق سبحانه الأرضَ وخلق منها آدم عليه السلام، وكذلك فلق سبحانه الأرض فأنبت البشر وأنبت الزرع وأنبت ما فيها -وكل هذا من جملة عالم الفليقة التي أشار إليها سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي الفليقة وهي الخليقة-.

فمِن الذي فلق الشيء من الشيء؟

وبأي قدرة تحولت الأشياء من شيء إلى شيء؟

وأي علم وحكمة اتسعا لذلك؟

نعم إنه الله تعالى الذي له القدرة التي لا تتناهى والعلم الذي لا يتناهى، ولذلك قال جل وعز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فلقد فلق سبحانه الحبة عن السنابل كحبوب الحنطة والشعير والأرز والعدس، ففلق الحبة وأخرج منها السنابل التي حوت حبوباً عديدة بعد أن كانت هذه الحبة مجملة رتقاء صماء في باطن الأرض، فسبحان مَن فتقها وفلق عنها هذه الزروع والسنابل.

ولقد فلق سبحانه النواة -أي العَجَمَة- عن الشجرة، فترى أن العجمة الواحدة يخرج عنها شجرة تحوي عدة ثمار، ولكل ثمرة عجمة كالمشمش والنخل مثلاً، فمن الذي فلق عن العجمة الواحدة شجرة كبيرة فَرَّعَتْ وأنبتت ثماراً وثماراً؟

إنه رب ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، إنه الله ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي فالقها عن أشجارها وثمارها وما هنالك.

وقد يفتق سبحانه الحبة أو العجمة، وقد يتركها صماء رتقاء؛ لأنه أعلم بما تستعد له هذه العجمة وهو أعلم بما أودع فيها من قوة الإنبات، لأنه سبحانه قد يخلقها عقيمة لا تلد -كما هو الحال عند الإنسان فقد يكون عقيماً لا يلد، قال جل وعلا: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾- فالأمر عائد إلى علمه وحكمته سبحانه.

وقال تعالى : ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فهو سبحانه فالق الصباح عن ظلمة الليل ، ويستخرجه منه فترى الفجر يدرأ الظلام بنوره شيئاً فشيئاً حتى تشرق الشمس ويمتد نورها.

وهكذا فإن المراد بـ ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾: عالم الخلق الشهودي المادي المستخرَج بعضه من بعض حتى ينتهي أمره إلى الماء، ولا يدخل في عالم الفلق عالم الأمر العلوي -إذ إنه لم يخلقه الله فلْقاً عن مادة وإنما خلقه بالأمر التكويني- كعالم الأرواح وعالم الملائكة فلا توالد فيه ولا فلق عنه، وإنما خلقه الله بقوله جل جلاله: ﴿كُن﴾ دون مادة أو مدة زمنية.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر كل شيء خلقه الله تعالى وله شر، فلا يعينك ولا يعصمك ولا يحرزك ولا يحفظك من شر كل ذي شر إلا رب الفلق الذي خلق الأشياء كلها، وهو ربها، بيده تصرفها، ولذلك كان حقاً عليك أن تتعوذ وتتحصن برب الفلق ليحفظك ويقيك شر كل شيء خَلَقَهُ وَلَهُ[1] شرّ.

وبعد ما ذكر سبحانه الشر بعمومه خصَّ سبحانه بالذِّكر شروراً لها آثارها في المجتمع والواقع؛ فذكر سبحانه ثلاثة أنواع من الشرور لها ضررها الكبير على الفرد والجماعة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق هو الليل إذا غاب الشفق، ويقال: (غَسَقَ الليل) إذا أظلم، وعلى هذا فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي من شر الليل إذا أقبل -أي دخل- فالغاسق[2]هو الظلام الذي ينتشر بعد غياب الشمس، أو بعد غياب القمر وانتشار الظلمة[3]،

---

[1] أي: لهذا الشيء المخلوق

[2] الغسَّاق -بالتخفيف والتشديد-: الذي يُحرِق ببرْده، ومنه قوله تعالى :
﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾.
انظر تفسير الإمام الرازي ٢٠٥/١٣

[3] انظر ما ذكره الرازي حول تفسيره لهذه الآية الكريمة

وفي هذا يقول سبحانه:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾-اللام: لام الوقت[1]، والمعنى: أقم الصلاة لوقت دلوك الشمس- ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ -ودخل في هذا: وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء- ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ -ودخل في هذا: صلاة الفجر- ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

واعلم أن ما قيل غير ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ما قيل غير ذلك فهو باطل لا أصل له وهو من دسائس الزنادقة في بعض الكتب المتأخرة، كما نص عليه صاحب (كشف الظنون) وغيره -وكتاب (كشف الظنون) كتاب نفيس يبيّن صحة نسبة الكتب إلى مصنّفيها، وقد يأتي على ذِكر ما جاء فيها مختصراً[2]-.

وعلى هذا فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شر الظلام إذا أقبل إلى هذا العالم، فإذا أظلم الليل بعد غياب الشمس أو أظلم بعد غياب القمر فإن الظلام الذي يأتي من بعد النور يُحْدِث أضراراً نفسية روحية يجب على المؤمن أن يتحصن من شرها ويستعين بالله من ضررها؛ وذلك لأن للشياطين هجمة وصَولَة على الإنسان إذا دخل الظلام -كما هو الحال في هوام الأرض وحشراتها فإنها لا تنتشر وتخرج من أوكارها إلّا في الظلام.

---

[1] انظر تفسير الإمام الرازي ٤٢/١٣

[2] مِن أشْهَر ما أُلِّف في التعريف بالكتب والعلوم وأجلّها، يشتمل على ما يقارب (١٥٠٠٠) اسم كتاب، ونحو (٩٥٠٠) اسم مؤلف، ونحو (٣٠٠) علم وفن.
أَلَّفه مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، المعروف بـ (الحاج خليفة)، وشرع في تأليفه في حلب سنة ١٠٤٢هـ واستمر في تأليفه زهاء عشرين عاماً، وفرغ منه نحو عام ١٠٦٢هـ وتوفي رحمه الله تعالى سنة ١٠٦٧

وقد بيّن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو صاحب البيان عن القرآن- بيّن ذلك في أحاديثه الشريفة، فقد روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال:

[إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ] -وفي رواية: [إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ]- [فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ[1] تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ[2] فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ] -وفي رواية:[فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا][3]- [وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ[4] وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا][5].

فلقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أنه إذا دخل جُنح الليل أي طرف الليل [فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ] أي كُفُّوهم عن الذهاب والتردد في الفلاة والبراري لأن شياطين الجن تنتشر في الأماكن المظلمة وقتئذٍ حتى تمضي مدة بعد المغرب، [فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ] وذلك لأن للشياطين هجمة تضر الإنسان، وقد تؤذي الولد نفسياً أو عقلياً ...

فقوله تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ**﴾ أي وأتحصّن بالله وأستعين به من شر النفوس الساحرة التي تنفث -أي تنفخ بِريق- مع أسماء يذكرونها من أسماء الشياطين في عُقَد يعقدونها فيضرون من أرادوا ضرره -لكن هذا بإذن الله ومشيئته سبحانه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ**﴾- فقد يعتري هذا الشخص -الذي أرادوا ضرره- قد يعتريه مرض أو تغير في المزاج .

---

[1] أي شياطين الجن

[2] أي من العشاء الأولى وهي صلاة المغرب

[3] أي إن باباً أُغلِق على ذِكر اسم الله فإن الشيطان لا يفتحه، لأن اسم الله جل جلاله حصن حصين

[4] أي غَطِّه

[5] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الأشربة

فلا يقي الإنسان ويحفظه من شر السحرة وضررهم إلّا رب الفلق، لذلك كان حقاً على المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى ويستعين به من شرهم فيحفظه سبحانه من شر شياطين الإنس ومن شر شياطين الجن.

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ولقد قَرَنَ سبحانه حَسَدَ الحاسد بسحر الساحر لشدة ضرره وقوة خطره، فكما أن سحر الساحر يضرُّ بالمسحور وينشأ عن نفس خبيثة من الساحر تريد الأذى والشر كذلك فإن حَسَدَ الحاسد يضرّ بالمحسود ويدل على خُبث نفس الحاسد، نسأل الله العافية. آمين

وقد دلت الآية على أن الحاسد مذموم لأنه في موضع يستعاذ منه ومن حسده وشره، فكيف يرضى لنفسه أن يكون في موضع تستعيذ الناس منه ومن شره؟!

وكفى الحاسد بهذا قبحاً ووقاحة.

وإن للحسد أثره وضرره على المحسود -إلَا من تعوّذ برب الفلق وتحصَّن به فإن الله تعالى يعيذه ويحفظه-.

وليعلم المؤمن أن الحسد يضرّ بطاعاته وعباداته وحسناته، وأن الحسد صفة مذمومة خبيثة تمنع المؤمن من الوصول إلى الله وتحجبه عن طريق القرب إليه سبحانه، ولا يمكن لحاسد أن يصل إلى الله تعالى -ولو بلغت أوراده عَنَان السماء، ولو أسهر ليله وأظمأ نهاره طيلة عمره- حتى يتخلص من صفة الحسد والضغينة التي في نفسه، وقد روى أبو داود وغيره قوله صلى الله عليه وسلم: [إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ][1].

والحسد: أن يتمنى الحاسد زوال تلك النعمة عن الإنسان المحسود، وتراه يكره ويجد في نفسه ضيقاً إذا وجد نعمة ظهر أثرها على فلان، فقد يحسده على نعمة مالية أنعم الله بها عليه، وقد يحسده على علم رزقه الله إياه، وقد يحسده على جاه مكّنه الله منه وهكذا...

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

وما حقيقة الحسد إلا اعتراض على الله تعالى لأن الحاسد عندما يتضايق ويكره أن يرى النعمة على غيره فإنه يكون قد اعترض على الله تعالى الذي أنعم بها عليه وأعطاه إياها.

وإذا كنت تريد لنفسك ما عندَ فلان فاسأل الله ذلك -دون أن تتمنى زوال تلك النعمة عن فلان- لأن الذي أعطاه وأنعم عليه جل وعلا يعطيك وينعم عليك إذا سألته، وفي هذا يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ**﴾ أي لا تتمنوا أن تكون نعمة غيركم عندكم، ولكن سلوا الله تعالى أن يتفضل عليكم ويعطيكم كما تفضل عليهم وأعطاهم.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب (الأولياء) عن الحسن البصري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسَلاً: [إن بُدَلاء أمتي[1] لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور][2] فسلامة الصدر هي أساس في الدخول على حضرة رب العالمين كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾، وكذلك سخاء النفس -فإن البخل والشح حجاب عن الله تعالى كما ورد في الحديث المرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما:

[خلق الله جنة عدن بيده، وخلق فيها ثمارها، وشقّ فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل][3].

---

[1] أي الأبدال -وهم أصحاب مرتبة في الولاية-.

[2] وأخرجه البيهقي في (الشعب) وأبو بكر ابن لال في (مكارم الأخلاق) والخرائطي في (مكارم الأخلاق) والدارقطني في (المستجاد) وعزاه في كنز العمال إلى لطبراني

[3] المعجم الأوسط للطبراني وصفة الجنة لابن أبي الدنيا

وجاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

[يَطلعُ الآن عليكم رجل من أهل الجنة] فطلع رجل من الأنصار تَنْطِف- أي: تَقْطُرُ- لحيته من وَضوئه، قد علَّق نعليه بيده الشمال.

فلما كان الغدُ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك -أي: قال: [يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة]- فطلع ذلك الرجل مثل المرَّة الأولى.

فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مِثْل حاله الأولى.

فلما قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم تبِع عبدُ الله بن عمرو رضي الله عنهما ذلك الرجل -الذي أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه من أهل الجنة- فقال له عبد الله بن عمرو: (إنِّي لاحيتُ) - أي: اختلفت وخاصمت- (أبي فَأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيتَ أَنْ تُؤويني إليك حتى تَمضي) -أي: الليالي الثلاثة ليطّلع على أعماله في الليل- (فعلت).

قال: نعم.

قال أنس رضي الله عنه: فكان عبد الله يحدّث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً؛ غير أنَّه إذا تَعارَّ -أي: استيقظ- ذَكَرَ الله تعالى وكَبَّر حتى صلاة الفجر.

قال عبد الله: غير أنِّي لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث الليالي وكِدْت أحتقر عمله -أي: أراه قليلاً- قلت له: يا عبد الله لَمْ يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ثلاث مرات: [يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة] فطلعتَ الثلاث المرَّات، فأردتُ أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقال: ما هو إلا ما رأيت.

فلما وَلَّيْتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيْتَ؛ غير أَنِّي لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله تعالى إيَّاه.

فقال له عبد الله بن عمرو: هذه التي بلغتْ بك].

قال الحافظ المنذري: رواه الإمام أحمد والنسائي، قال: ورواه أبو يعلى والبزار بنحوه.

وسمّى الرجل المبهم سعداً.

ثم قال الحافظ المنذري: ورواه البيهقي أيضاً عن سالم بن عبد الله عن أبيه يعني: ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: [ليطلعنّ عليكم رجل من هذا الباب من أهل الجنة].

فجاء سعد بن مالك رضي الله عنه فدخل منه.

قال البيهقي فذكر الحديث: قال: فقال عبد الله بن عمرو: (ما أنا بالذي أنتهي حتى أبيت عند الرجل فأنظر عمله) -فذكر الحديث في دخوله عليه.

قال عبد الله: (فناولني -أي: سَعْدٌ- عَبَاءة فاضطجعت عليها قريباً وجعلت أَرْمُقُه -أَنْظره- بعينيّ ليلَه -أي: كله- كلمَّا تعارَّ: سَبَّح وكَبَّر وهلَّل وحمد الله تعالى حتى إذا كان وجه السحر -أي: إذا صار وقت السحر- قام فتوضأ، ثم دخل المسجد فصلى ثنتي عشرة ركعة باثنتي عشرة سورة من المفصّل ليس من طواله ولا من قصاره، ويَدعو في كل ركعتين بعد التشهد بثلاث دعوات يقول:

اللهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

اللهم اكفنا ما أهمَّنا من أمر آخرتنا ودنيانا.

اللهم إني أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله)..- إلى آخر الحديث.

وهذه صفات أهل الجنة وهي: سلامةُ الصدر من الآفات القلبية، وسخاءُ النفس وحسنُ الطويّة ، وحبُّ الخير لكل عباد الله تعالى.

واعلم أن من جملة عالم الفلَق -أي الفليقة-: الإنسانُ؛ إذ خلقه الله من الأرض، قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ فكما أنبت سبحانه الشجر أنبت البشر لكن على كيفية أخرى تتصف بالتسوية والتعديل والتقويم.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ][1].

فلقد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يأتي بقبضة ترابية من جميع أنحاء الأرض، ومِن هذه القبضة خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، والأرض مختلفة شكلاً ولوناً ومعنى، فجاء بنو آدم كذلك منهم سهل الخلق ومنهم الحَزن -أي سيىء الخلق- وهكذا... ولذلك قال تعالى : ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو سبحانه أعلم بما يكون إليه لونك قبل أن يخلقك ويوجدك في هذا العالم، وهو أعلم بما سيكون عليه شكلك ووصفك- ﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ -أي: من أيّ تربة ومن أي بقعة من الأرض خُلقتم- فهو أعلم بذلك سبحانه، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ -بكسر اللام، وفي قراءة متواترة بفتح اللام[2].

---

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن وقال عنه: (حسن صحيح)، وأبو داود في سننه في كتاب السُّنة

[2] انظر (طيبة النشر) للحافظ ابن الجزري رحمه الله تعالى

فقد بيَّن سبحانه أن اختلاف الألوان الشكلية بين بني آدم أمر عائد إلى حكَم سابقة وإلى علم سابق وإلى خصائص سابقة يعلمها الله تعالى في أزل الأزل،

وفي هذا تنبيه للعقلاء أن يعتبروا في اختلاف الألوان والألسنة، وأن ذلك آية كبيرة تدل على قدرة الله سبحانه، وأن هناك إلهاً يتصرف في عباده على مقتضى الحكمة والعلم، ولو كان الأمر من نفس الأمر بنفسه لجاء بنو آدم على لون واحد وشكل واحد ولسان واحد.

وأما اختلاف الألسن فهي وإن كانت مختلفة في أشكالها الجسمية اللحْمية إلا أن مراد الآية ما هو أعم وأظهر من ذلك وهو اختلاف اللغات التي تنطق بها الألسنة، وهذا كما تقول: (الأراضي مختلفة) ومرادك اختلاف ما ينشأ عن الأراضي؛ إذ منها الزراعية ومنها الشجرية ومنها النباتية، فاختلافها مما ينبت عليها وينشأ عنها، وهكذا فاختلاف الألسنة أي ما ينشأ عن الألسنة، إذ تنشأ عن الألسنة الأصوات وتنشأ عن الأصوات حروف وكلمات وهي اللغات المعروفة، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ**﴾ أي بلغة قومه ليبين لهم ويبلغهم ما أرسل به إليهم، وهكذا فإن اختلاف الألسنة هو بمعنى اختلاف الأصوات البشرية والنغمات واللهجات واللغات.

واعلم أن الأصوات التي تتركب منها الحروف والكلمات مظهر كبير من مظاهر قدرة رب العالمين جل وعلا، وذلك لأن حقيقة الصوت إنما هي هواء اشتمه الإنسان وصار في نفْسه نَفَساً ثم أخرجه من مخرج معين مروراً على مقاطع وتضاريس معينة -هي اللسان والحنجرة والشفتان- وبمرور هذا النفَس على هذه المقاطع والتجاويف يحدث هذا الصدى وهو الصوت المعروف.

كما أن هذا الصوت يشكل حروفاً تتركب منها كلمات تحمل معاني تعجز عن حملها مراكب الأرض كلها، فلقد حملت هذه الكلمات معاني من بحر المعاني النفسية القلبية وأخرجتها إلى عالم المباني صوتاً مسموعاً.

وإن حمل المعاني الكامنة في النفس -والتي يريد الإنسان أن يبينها ويظهرها- إلى عالم المباني الخارجي؛ هذا يحتاج إلى مركب ينقل هذه المعاني ويعبر بها من النفْس إلى الخارج -وهذا ما يعرف بـ (التعبير) وهو العبور بالمعاني من بحر الصدر النفسي إلى عالم المباني الخارجي- وكما أن عبور النهر يحتاج إلى مركب فكذلك حمل المعاني إلى الخارج والتعبير عنها يحتاج إلى مركب، وما هذا المركب إلا هذه التجاويف والمقاطع التي خلقها الله في جوف الإنسان من حنجرة ولسان وشفتين ... إلخ والتي يصدر عنها صوت مسموع يحمل كلمات تعبر عن معاني أراد الإنسان بيانها للآخَر، وهكذا يقال: (عَبَّر فلان عمّا في نفسه) أي عَبَّر بكلمات وجُمَل حملت ما في نفسه من معانٍ.

أما الحروف والكلمات التي تنشأ عن مرور النَفَس على مقاطع وتجاويف الفم فهي محدودة معينة ولكنها تحمل معاني كثيرة، فما أعظم قوة هذه الحروف إذ حملت معاني كثيرة ولا يقوم غيرها مقامها، ولهذا قال العارفون رضي الله عنهم: (إن الحروف هي جند عظيم من جنود رب العالمين، لا يعلم قوتها إلا الله تعالى).

وكما أن اللغات مختلفة فالأصوات كذلك مختلفة بين كل إنسان وآخر، وذلك لأن الله تعالى هو العليم الحكيم وهو عالم بالعلْم الأزلي أن استعداد هذا المخلوق سوف يكون كذا وكذا بصوت كذا وكذا على نسبة معينة في الضخامة أو الرقة وهكذا فإن ذلك ناشئ عن اختلاف دقيق جداً في مخارج الحروف، وسبحان الذي خصَّ كل إنسان بصوت معين ونغمة معينة ولهجة معينة، ولذلك قال عز من قائل: ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ**﴾ -بكسر اللام- أي الذين يريدون أن يعْلموا فيفهموا عظمة قدرة رب العالمين تبارك وتعالى.

ولقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أحسن نغمة في الصوت فكان صوته صلى الله عليه وسلم أحسن الأصوات وأجملها، وفي هذا قال أنس بن مالك رضي الله عنه: [مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ نَبِيُّكُمْ أحْسَنَهُمْ وَجْهًا، وَأَحسَنَهُمْ صَوْتًا][1].

ولما قَدِم جُبير بن مطعمٍ المدينةَ المنورة سمع سيدَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وكان صلى الله عليه وسلم يصلي المغرب- سمعه يقرأ سورة الطور، قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِ ﴿ٱلطُّورِ﴾، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[2].

وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: [سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ][3].

فكان صوته صلى الله عليه وسلم يجذب القلب والعقل والروح وقد قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ فلقد زاد في خَلْق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء تكريماً وتفضيلاً وتكميلاً وترقية له صلى الله عليه وسلم.

---

[1] عزاه الحافظ ابن حجر في (الفتح) ١١/ ٢١٦ إلى الترمذي، وقال القاضي عياض في (الشفا): (وَحَكَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ..) وذكر الحديث. اهـ ١/١٤٨

[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[3] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الصلاة

ومن آياته جل وعلا ما جاء في الآية: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أما اختلاف الألوان فهناك الاختلاف في الألوان الشكلية ما بين أحمر وأسود وأبيض وأسمر ... إلخ، والكل من بني آدم وأبوهم سيدنا آدم عليه السلام، فقد يخلق سبحانه من الأبيض الأسْودَ والعكس، وهذا مظهر من مظاهر قدرته سبحانه.

وهناك الاختلاف في الألوان الصورية الجسمية فلا ترى إنساناً يشبه إنساناً آخر على التمام، إذ لكل إنسان شكله المتميز عن غيره في تقاسيم وجهه وشكل أنفه ولون عينيه ... إلخ، وكذلك التوأمان فلا بد من اختلاف فيما بينهما.

وإن أحسن الألوان الشكلية وأجملها هو لون وشكل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلا أجمل من لونه الشريف صلى الله عليه وسلم، ولا أجمل من هيئته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم أبيض اللون مُشْرَباً بحُمْرة -وهذا أجمل الألوان- وأما بياض لونه صلى الله عليه وسلم فكان بياضاً نورانياً باهراً، يَعرف ذلك كل مَن نظر إليه صلى الله عليه وسلم.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

[بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ[١]؟

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ][٢]... الحديث

---

[١] وذلك لأن للداخل دهشة؛ خاصة إلى مجلس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

[٢] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العلم واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وفي رواية: [قَالُوا: هَذَا الْأَمْغَرُ الْمُرْتَفِقُ][1] -و[الْأَمْغَرُ] هو الأبيض المُشْرَب بالحُمْرَة على وجه خاص- فلقد أشاروا إليه صلى الله عليه وسلم بقولهم:

[هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ] مع أن هناك في الصحابة مَن هو أبيض، ولكن بياض رسول الله صلى الله عليه وسلم بياض متميز مُشْرَب بحُمْرة لا يشابهه في ذلك أحد، بل أبدعه الله تعالى إبداعاً خاصاً على أحسن ما يكون.

ثم سأل الأعرابيُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أركان الإسلام فأجابه صلى الله عليه وسلم فآمن الأعرابي وقال: [آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ].

أي: وقد جاءنا رسولٌ مِن عندك يا رسول الله وبلَّغنا ولكن أردت أن آتي إليك وآخذ عنك وأرجع إلى قومي فأبلّغهم، ثم ذهب الرجل إلى قومه وبلّغهم فما مضت مدة إلّا وما من بيت في تلك البقعة إلّا وفيه: [لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم][2] -أي عمرت بيوتهم بالإسلام والإيمان.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: [أوَّل ما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه] -أي: أسرعوا إليه- [فكنتُ فِيْمَنْ جَاءه فلما تأمَّلت وجهه صلى الله عليه وسلم واستبنتُه عَرَفت أَنَّ وجهه صلى الله عليه وسلم ليس بوجه كذَّاب][3] أي: بل هو وجه إمام الأنبياء والمرسلين وأصدق خلق الله أجمعين لأن آيات صدقه ظاهرة على وجهه وخلْقته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

---

[1] طرف حديث في سنن النسائي كتاب الصيام

[2] انظر (الفتح) للحافظ ابن حجر ١٥٢/١

[3] طرف حديث رواه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب إقامة الصلاة والسُّنة فيها، والحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ومَن نظر إلى وجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فيه: [محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم]، وذلك لأن الكلام أقسام، فهناك الكلام الحَرْفِيّ الذي يقرؤه الإنسان بالحروف، وهناك كلام وُجودي، فمن نظر في الكائنات قرأ: [لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] فالكائنات والمخلوقات كلها كلمات الله تعالى لأنها آثار قول الله تعالى: ﴿كُن﴾، وينبغي على الإنسان أن يقرأ الكلمات الكونية الوجودية كي يتعرف على سعة قدرة الله وعلمه وحكمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ -أي: ومن آياته الكونية الوجودية التي يجب على الإنسان أن يقرأها- ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أما آية اختلاف الألسنة فيقرؤها الإنسان بالسمع ويتعرف على اختلاف اللغات والأصوات بين بني آدم عليه السلام، وأما آية اختلاف الألوان فيقرؤها الإنسان بحاسة البصر.

وعلى هذا فكل حاسة أودعها الله فيك إنما تُقرِئك معاني، فالسمع يوصلك إلى معرفة أمور، والبصر كذلك، والشم والذوق واللمس، وهذه هي نوافذ الإنسان إلى عوالم الله تعالى فينظر منها ويهتدي بها إلى معرفة عوالم الله والاستدلال على عظيم قدرته وسعة علمه وحكمته سبحانه .

ولا يمكن لحاسة أن تقوم مقام غيرها، فبالبصر يُدرِك الإنسان المبصَرات، وبالسمع يدرك المسموعات، ولو قدَّمت إليه وردة ليشمها فإنه يضعها على أنفه ولا يمكن له أن يشمها بأذنه أو بعينه، ولكن لا يصحّ للإنسان الشم إلّا إذا كان غير مزكوم، وهكذا الذوق والسمع والبصر واللمس...

وإذا كان الأنف يشم طيب الورد فإن طيب الإيمان إنما يُشَمّ بالقلب، وكذلك طعم الإيمان إنما يتذوقه القلب لا اللسان، وكما لا يجد حلاوة الماء وعذوبته إلّا من كان سليم الجسم من الأمراض والحمّى وليس على لسانه ما يحجبه عن التذوق فكذلك لا يجد حلاوة الإيمان ويتذوق طعمه إلا من عمر الإيمان قلبه، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

[ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا][1].

وطعم الإيمان حلو لا يجده إلّا من تحقق بما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ][2].

وقد أثبت سبحانه أن للقلب شمّاً وتذوقاً ووجداناً وسمعاً وبصراً فوق المدارك المعروفة، فقد أخبر سبحانه عن يعقوب عليه السلام قوله: ﴿**إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾ -وكان يوسف عليه السلام في مصر، ويعقوب عليه السلام في بيت المقدس.

ولو كان هذا الشمّ لريح قميص يوسف لو كان بالأنف لَشَمَّ ذلك مَن كان مع يعقوب عليه السلام ولكنه شمٌّ بالقلب أعلى مِن شمّ الأنف-.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان

ولقد نُقل عن الإمام الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه[١] أنه كان يعرف مراتب الأولياء بالشمّ، فيشم الولي ويعرف مرتبته.

كما أخبر سبحانه عن بصر القلب -الذي هو فوق بصر العين المعروف- وأن العمى الحقيقي هو عمى القلب فقال جل وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وهذا هو شأن الكافرين الذي قال سبحانه فيهم: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أي ينظرون بأعينهم ولكنهم لا يبصرون بقلوبهم آيات صدقك وبيّنات رسالتك لأنهم قد حَجَبوا قلوبهم وغلّفوها عن رؤية الحق، قال جل جلاله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾.. الآية.

---

[١] هُوَ سَيِّدي الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ الزَّاهِدُ العَارِفُ القُدْوَةُ شَيْخُ الإِسْلامِ عَلَمُ الأَوْلِيَاءِ: مُحْيِي الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ القَادِرِ بنُ أَبِي صَالِحٍ الحَنْبَلِيُّ شَيْخُ بَغْدَادَ.
مَوْلِدُهُ: بِجَيْلانَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ.
قَالَ السَّمْعَانِيُّ: (كَانَ الشَّيخُ عَبْدُ القَادِرِ مِنْ أَهْلِ جيلانَ إِمَامَ الحَنَابِلَةِ وَشيخَهُم فِي عصرِهِ، فَقِيْهٌ صَالِحٌ، دَيِّنٌ، خَيِّرٌ، كَثِيْرُ الذِّكْرِ، دَائِمُ الفِكْرِ، سرِيعُ الدَّمْعَةِ). اهـ
وقال سيدي الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه:
(أَرَادَ اللهُ مِنِّي مَنْفعَةَ الخلقِ، فَقَدْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِ مائَةٍ، وَتَابَ عَلَى يَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ مائَةِ أَلْفٍ).
عُمِّرَ رضي الله عنه تِسْعِيْنَ سَنَةً، وَانْتَقَلَ إِلَى رحمة اللهِ تعالى فِي عَاشر رَبِيْع الآخر، سَنَة إِحْدَى وَسِتِّيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ، وَشيَّعه خلق لا يُحصَوْنَ، وَدُفِنَ بِمَدرسَتِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ورضي عنه وأرضاه ورضي عنا به. آمين. اهـ
(سير أعلام النبلاء) ٢٠/٤٥٠ بتصرف يسير

ولما سأل الأسودُ العَنْسِيّ -الذي ادعى النبوة- لما سأل أبا مسلم الخَوْلانيّ رضي الله عنه: أتشهد أني رسول الله؟

قال له: (ما أسمع) -فهو يسمع بأذنيه لكن قلبه لا يعي إلّا الحق-

ولما سأله: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: (نعم)[1] -أي سمع ذلك وشهد به-.

---

[1] قال سيدي الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ورضي عنه في كتابه (التقرب إلى الله تعالى):
أوردها الإمام النووي رحمه الله تعالى بإسناد الإمام أحمد في كتاب (الزهد) عن شرحبيل بن مسلم أن الأسود بن قيس العَنْسِي الكذّاب لمّا ادعى النبوة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني فلما جاءه قال: أتشهد أني رسول الله؟
قال: ما أسمع.
قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟
فقال: نعم.
فردّد ذلك عليه، فأمر بنار عظيمة فأجِّجت فألقى فيها أبا مسلم فلم تضرّه.
فقيل للأسود: اِنْفِهِ -أي: أخرجه من أرضك- وإلا أفسد عليك مَن تَبِعك.
فأمره بالرحيل عن اليمن فأتى أبو مسلم المدينة وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد فقام يصلي إلى سارية -عمود من أعمدة المسجد- فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام إليه فقال له: مَن الرجل؟
فقال: مِن أهل اليمن.
قال عمر: فلعلك الذي أحرقه الكذاب بالنار؟
قال: ذلك عبد الله بن ثُوَب.
فقال عمر: نشدتك الله أنت هو؟
قال: اللهم نعم.
فاعتنقه، ثم بكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مَن فعل به كما فعل بإبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن. اهـ.
وقد روى هذه القصة الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناده المتصل عن الثقات، كما ذكرها غيره من المحدِّثين. اهـ

ومما تقدم يتبين لك أن القلب أشرف الأعضاء الإنسانية وأهمها، ومنزلته بالنسبة للأعضاء والمدارك بمنزلة الملك على الرعية، ولو صلح القلب لصلح الجسد كله -بما فيه من حواس ومدارك- ولو فسد القلب لفسد الجسد كله -كما أخبر عن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ولما كان قلبُ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعظمَ القلوب وأجمعَها وأطْهرَها وأنْظفَها -بحيث اختصه الله تعالى لنزول القرآن عليه قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي من بين سائر القلوب-: دلَّ ذلك على صلاحية سائر حواسه ومداركه صلى الله عليه وسلم وشرفها وعلوّها ورفعتها.

فاعمل أيها المؤمن جاهداً على تنظيف قلبك وتطهيره من العلل والآفات القلبية والأدواء[2] النفسية كي يشمّ قلبك طيب الإيمان ويتذوق حلاوته، وكي تتجلى فيه أسرار رب العالمين، وعَمِّر قلبك بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ونسأل الله ذلك من فضله. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] وذلك فيما رواه الشيخان أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ].

[2] جمع (داء).

المحاضرة الحادية عشرة:

حول تفسير اسمه سبحانه: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ هو اسم من أسماء الله تعالى، قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾.. الآية.

ويقال في اللغة: (آمنه) و(أمّنه) بمعنى واحد[1]، فهو (مُؤْمن) -اسم فاعل- أي مُؤمّن لغيره، فلا أمان إلا من الله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ ، ولا سلام إلا من الله ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾.

وإن للأسماء الإلهية آثاراً في المخلوقات ولها أحكامها في الدنيا وفي الآخرة،

فمن آثار اسمه سبحانه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾:

أولاً: أنه سبحانه آمن أي أمّن عباده كلهم -برِّهم وفاجرهم- أمّنهم من الظلم، فلا يظلم سبحانه أحداً، فهو سبحانه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ أي المؤمّن عبادَه من الظلم، فلقد أجارهم من الظلم في جميع العوالم، بل هو سبحانه مُنَزَّه عن إرادة الظلم، قال تعالى :﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

فما ظلم سبحانه أحداً فيما مضى، ولا يظلم سبحانه في الحال، ولا يظلم في المآل، بل هو جل جلاله ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ الذي أمّن عباده من الظلم.

---

[1] انظر (لسان العرب) مادة (أمن).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لجميع العالَمين في كل العالَمين، وعلى هذا فهو سبحانه ليس بظالم في قضائه وقدره على العباد -الذي حكم به بمقتضى علمه السابق وحكمته سبحانه-.

فلقد أمّن سبحانه عباده من الظلم أزلاً، فما ظلم وما أراد الظلم بأحد، ثم إنه سبحانه المؤمّن عباده في الحال وذلك بأن يؤمّن عباده المؤمنين من المخاوف والمكاره -وذلك على حسب إيمانهم وعلى حسب قوة إيمانهم- كما أنه سبحانه المؤمّن عباده في المآل أي يوم القيامة فلا يظلم أحداً في الحساب والجزاء، وفي هذا يقول سبحانه:﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وذلك حين يختصم الكافر مع قرينه الشيطاني، وكل منهما يرمي الآخر بالملامة فيقول سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ ...الآية.

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فلا تتهم قضاء الله وقدره بالظلم أو الجَور، بل كن على يقين أنه سبحانه ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ الذي أمّن عباده من الظلم في قضائه وقدره السابق، وأجارهم من الظلم في حياتهم الدنيا، كما أمّنهم وأجارهم من الظلم حين يصيرون في الآخرة.

روى مسلم في صحيحه[1] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: [كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟

قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ[2] رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ[3]؟

قَالَ: يَقُولُ: بَلَى.

---

[1] في كتاب الزهد والرقائق
[2] حين يقف العبد -الكافر- للسؤال بين يدي الله تعالى
[3] أي أنك أمَّنتَني من الظلم لأنك المؤْمن

قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي.

قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا.

قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي.

قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ[١]].

وهذا دليل على أن الكافر يعلم يقيناً أن الله لا يَظلم، ويقرّ الكافر ويعترف بذلك في وقت لا ينفعه ذلك، فهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، فلا يظلم الكافر بزيادة عذاب فيما يستحقه مثقال ذرة، وإنما يأخذ كلُّ كافر ما يستحقه من العذاب على حسب كفره -وإن كان جميع الكفار خالدين في العذاب من حيث المدة إلّا أنهم متفاوتون في العذاب من حيث الشدة، وذلك على حسب كفرهم، ونعوذ بالله تعالى من ذلك-.

كما أنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة مِن خير فعلها العبد، فلا يضيعها الله تعالى، وكذلك لا يزيد سبحانه في ذنوب المذنب ولا مثقال ذرة من ذنْب.

والذَّرّة -كما قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما-: هي رأس النملة الصغيرة الحمراء[٢] -وهو النمل المعروف بالذَّرّ- وهذا التشبيه لتقريب حجم الذرة إلى العقول وإلّا فقد قال بعضهم : الذرة هي الهباءَةُ في الهواء، والتي لا تُرى إلا من خلال شعاع الشمس القوي، كما هو الحال عندما يرى الإنسان الهباء في نور الشمس الداخل من كوّة في الجدار.

فالذرة هي الجزء الذي انتهى إلى آخر حد في التجزئة ولا يمكن تجزئته، قال تعالى: ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا**﴾ أي وإن تك هذه الذرة حسنة فإن الله تعالى يضاعفها ﴿**وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا**﴾ وهذا من باب التفضل الإلهي، وهذه المضاعفات لا يعلم حدها إلّا الله تعالى، وترجع إلى حكمة الله تعالى.

---

[١] أي أُدافِع

[٢] قال الإمام الثعالبي في تفسيره عند كلامه حول هذه الآية الكريمة: والذَّرَّة: الصغيرةُ الحَمْرَاءُ مِنَ النَّمْلِ، ورُوِيَ عنِ ابْنِ عبَّاس أنه قال: الذَّرَّة: رأسُ النملةِ.

روى الإمام أحمد في مسنده[١] وابن أبي حاتم بأسانيد متعددة[٢] عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهدي -أحد التابعين- قَالَ: بَلَغَنِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:

[إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ.

قَالَ: فَقُضِيَ أَنِّي انْطَلَقْتُ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا[٣] فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ: بَلَغَنِي عَنْكَ حَدِيثٌ أَنَّكَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: لَا، بَلْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِيهِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ، ثُمَّ تَلَا: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا**﴾].

وهناك الأمن الخاص الذي يؤمّن الله به عباده المؤمنين فهو سبحانه ﴿**ٱلۡمُؤۡمِنُ**﴾ أي المؤمّن للمؤمنين به على حسب إيمانهم، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**﴾ وهذا من جملة آثار اسم الله تعالى: ﴿**ٱلۡمُؤۡمِنِ**﴾.

---

[١] المسند ١٠٣٤٢ و ٧٦٠٤

[٢] انظر تفسير ابن أبي حاتم عند كلامه حول قوله تعالى: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ**﴾.

[٣] وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٦٨/٢ قول أبي عثمان رحمه الله: (فانطلقتُ إلى الحج في طلب هذا الحديث). اهـ
فتأمل حرص التابعين على سماع حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا شأن كل مؤمن.

ويجب أن تعلم أيها الإنسان أن لأسماء الله تعالى آثاراً وأحكاماً في العوالم والكائنات والأعراض والذوات والجواهر، وكلها مظاهر لآثار أسماء رب العالمين جل جلاله، والعالَم كله علامات دالة على رب البريَّات سبحانه، يقرأ فيها الإنسان مظاهر أسماء الله وصفاته وكمالاته تبارك وتعالى.

ومعنى الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾ -أي: لم يخلطوا إيمانهم- ﴿بِظُلۡمٍ﴾ -أي: بِشِرْكٍ كما سيتضح بيانه- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ -أي: لهم الأمن في جميع العوالم- ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

واعلم أن الأمان يأتي للمؤمن من حضرة الله تعالى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ على حسب إيمان العبد المؤمن بربه سبحانه.

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة، فَشَقَّ ذلك عليهم -أي صعُب ذلك عليهم لأنهم فهموا من الظلم المذكور في الآية فهموا منه الظلمَ العام أي ارتكاب الذنوب لأن من عمل ذنْباً ولو صغيراً فقد ظلم نفسه- فَقَالُوا: [يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟

فقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ.

أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ:

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾][1].

ففسّر صلى الله عليه وسلم الظلم في الآية بـ (الكفر والشرك)، وفي هذا دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يستقل بفهم القرآن بعقله دون أن يرجع إلى بيانات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

---

[1] انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب الإيمان

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ -أي: لهم الأمن على حسب إيمانهم، فلهم الأمن في الدنيا من عذاب الدنيا فينزل عليهم الأمن ولو كانوا في أخوف المخاوف، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ وهذا ما حصل يوم بدر لما كان الصحابة في قلة عدد وعتاد، والمشركون قد أعدوا لهم أعظم ما عندهم من رجال وعتاد، فلما استحكمت الحرب أنزل الله الأمان على المؤمنين حتى أخذهم النعاس من شدة أمنهم واطمئنانهم، وهذا قوله تعالى:

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾.

وقال سبحانه عن يوم أُحُد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ حتى إن بعضهم كاد السيف أن يقع من يده[1].

فهو سبحانه الذي يلقي الأمان على أهل الإيمان ولو كانوا في أخطر المواقف، ويلقي الخوف في قلوب أهل الكفر ولو كانوا في كثرة عدد وقوة عتاد، قال جل وعلا: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي مهتدون في الدنيا لِما فيه سعادتهم وصلاحهم، وهم مهتدون في عالم البرزخ أيضاً فيجعلهم الله تعالى في أمان من عذاب القبر على حسب إيمانهم، وهم مهتدون للجواب عندما يُسأَلون عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾-أي: الكافرين، فلا يعرفون الجواب.

---

[1] انظر تفسير ابن كثير ٢٢/٤

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي مهتدون في برازخ الآخرة أيضاً، فلما تشتد الأهوال والكربات على أهل الموقف يُنزل الله الأمان على أهل الإيمان على حسب إيمانهم، ويؤمّنهم من تلك المخاوف والمكاره، وهم مهتدون إلى عالَم الجنة، فإذا دخلوا الجنة هُدوا إلى قصورهم المُعَيَّنة لهم، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾.

وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم: [فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ[1] أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا][2] أي يعرف قصره ومنزله في الجنة أشد معرفة منه لمنزله لمّا كان في الدنيا.

وإن من أهم الأمن: أن يؤمِّن اللهُ الإنسانَ يوم القيامة -وهو يوم الوعيد-، ولذلك جاء في الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي والحكيم الترمذي وغيرهم أنه صلى الله عليه وسلم قال:

[اطْلُبُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ[3]، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ] أي زلاتكم وهفواتكم التي إذا ظهرت استحييتم منها [وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ][4] أي: يؤمّن قلوبكم من الفزع يوم يشتد الفزع -وهو الفزع الأكبر- لكنّ أهل الإيمان لهم الأمان على حسب إيمانهم، قال تعالى:

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾.

---

[1] أي: أهل الجنة

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

[3] أي: اسعوا في الخير ما دام لكم وجود في الدنيا

[4] انظر كتاب (الفرَج بعد الشدة) لابن أبي الدنيا و(الأسماء والصفات) للبيهقي و(نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم) للحكيم الترمذي و(مصنف ابن أبي شيبة) و(المعجم الكبير للطبراني).

ومِن دعاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصباح والمساء: ما رواه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

[لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ] أي لم يكن يترك [هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي[1]وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي -وَقَالَ عُثْمَانُ: عَوْرَاتِي- وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي][2] أي بالخسف.

وما أشد حاجة الإنسان إلى أمانٍ من الله يوم الوعيد الشديد، ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم في الليل:

[اللَّهُمَّ ذَا الْحَبْلِ الشَّدِيدِ وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ، وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ الرُّكَّعِ السُّجُودِ الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ][3]... الحديث

فقوله صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ ذَا الْحَبْلِ الشَّدِيدِ] الحبل الشديد هو القرآن العظيم الذي جاء وصفه في الحديث الآخر بأنه حبل الله المتين.

روى ابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوماً على الصحابة فقال:

[أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ] -وفي رواية: [فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ][4]-[فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا].

---

[1] والعافية في الدين: أن يحفظك الله تعالى من الفتن والشبهات والضلالات
[2] سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء
[3] طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات وصحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة
[4] عزاها الحافظ المنذري في (الترغيب) إلى البزار والطبراني في (الكبير) و(الصغير)

ومَن تمسّك بحبل الله المتين الشديد فهو في أمان الله تعالى لأن الله تعالى لا يقطع الحبل بمَن تمسّك به.

و قوله صلى الله عليه وسلم:

[أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ] هو الأمن يوم القيامة بما فيه من الأهوال والمخاوف والحساب والجزاء -والذي يحتاج فيه الإنسان إلى أمنٍ مِن الله تعالى- فلا أمن ولا أمان إلّا من الله ﴿**ٱلْمُؤْمِن**﴾ جل وعلا.

[وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ] أي: يوم يظهر الخلود فيقال لأهل الجنة: [يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ] ويقال لأهل النار: [وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ][١] فيُعلَن الخلود بعدما دخل كل صاحبِ دارٍ دارَه واستقر في قراره.

[مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ] أي: المقربين إلى الله تعالى قرباً خاصاً، الذين يشاهدون أنوار الله بقلوبهم في كل العوالم.

[الرُّكَّعِ السُّجُودِ، الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ] الذين وفوا عهودهم مع الله تعالى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعهد العبد مع الله هو قوله: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ فيجب عليه أن يفي بهذا العهد، وأن يقوم بما تتطلبه منه كلمة: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾، لأن الإنسان عندما يقول: ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ فكأنه يقول: (يا رب أنت الإله الحق الذي يجب أن يُعبَد، ويجب عليّ أن أعبدك لأنك إله حق).

فأوف أيها الإنسان بعهدك مع الله ، ليوفي جل جلاله بعهده معك، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾.

---

١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وأما العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو شهادة الإنسان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الإقرار من الإنسان هو عهد والتزام بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتّباعه، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم رسول الله -سواء شهدت بذلك أم لم تشهد- وفي هذا يقول سبحانه: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ**﴾.

فلما تقول: [وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم] فكأنك تقول:(وأشهد يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك رسول الله، جئت بالرسالة الهادية من عند الله تعالى، وأنا أقِرّ بذلك وألتزم العمل بها، وأتّبعك فيما جئت به).

وإذا كان من البديهيات العقلية أن يتّبع الإنسان مَن هو أعقل منه وأعلم منه وينقاد له؛ فإنك إذا بحثت عن أعلم العالمين وأعقل العالمين وأصدق العالمين وجدته سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، سيد الأولين والآخرين، فما عليك إلا اتباعه والانقياد لأمره، وهو صلى الله عليه وسلم المعصوم عن الخطأ والخطيئة بعصمة الله تعالى، فإذا نطق كان نطقه عن الله جل وعلا، قال تبارك وتعالى:

﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ**﴾.

وإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقضي على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وهل يخطئ رب العزة في القضاء؟!

حاشاه جل وعلا.

قال صلى الله عليه وسلم:

[اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ][١].

---

١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الزكاة

واعلم من هنا مقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تتهور في تخطئته صلى الله عليه وسلم فإن ذلك خطأ كبير منك، وجهل كبير منك برسول الله صلى الله عليه وسلم ومقامه صلى الله عليه وسلم الذي قال له الله جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ فما حَكَمَ صلى الله عليه وسلم إلّا بما أراه الله جل جلاله، فكيف يصح لك أن تنسب الخطأ له صلى الله عليه وسلم؟!

ثم إنك أيها الإنسان مأمور ومكلف أن تتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ما جاء به، قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾

لا أن تحكم على رسول الله وتجتهد في خصائصه ومقاماته صلى الله عليه وسلم...

سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن جملة آثار اسم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ جل وعلا: أن أمّن عباده وأجارهم من أن يخيّب دعاءهم إذا دعوه، وأجارهم وأمّنهم من أن يُخلف وعده معهم إذا دعوه وسألوه، وجعلهم جل جلاله في أمان من هذا.

ولذلك فسر بعض السلف اسم الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ بـ (المصدِّق)، وهذا يرجع إلى ﴿ٱلۡمُؤۡمِن﴾ بمعنى (المؤمّن) -من الأمان- فلقد أمّن سبحانه عباده من أن يخلف وعده معهم فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ فوعدهم سبحانه أنه إن دعوه أجابهم، قال تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

وأمّن الله عباده من أن يخلف وعده بالإجابة، وأمنهم إذا استغفروه من ألا يغفر لهم وهكذا .. فلا بد من الإجابة.

ولا تقل: (أنا أدعو ولا أجد الإجابة)، فقد قال صلى الله عليه وسلم:

[مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ[١] مِثْلَهَا؛ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ[٢]، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَكْثَرُ][٣]

أي: الله تعالى أكثر خيراً وإجابة.

وجاء في مستدرك الحاكم وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[يَدْعُو اللَّه بِالْمُؤْمِنِ[٤] يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ:

عَبْدِي إِنِّي أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُوَنِي وَوَعَدْتُكَ أَنْ أَسْتَجِيبَ لَكَ، فَهَل كنْتَ تَدْعُونِي؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَب.

فَيَقُولُ: أَمَا إِنَّكَ لَمْ تَدْعُنِي بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَكَ.

أَلَيْسَ دَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِغَمٍّ نَزَلَ بِكَ أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ فَفَرَّجْتُ عَنْكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَب.

فَيَقُولُ: فَإِنِّي عَجَّلْتُهَا لَكَ فِي الدُّنْيَا.

وَدَعَوْتَنِي يَوْمَ كَذَا وَكَذَا لِغَمٍّ نَزَلَ بِكَ أَنْ أُفَرِّجَ عَنْكَ فَلَمْ تَرَ فَرَجًا؟

قَالَ: نَعَمْ يَا رَب.

فَيَقُولُ: إِنِّي ادَّخَرْتُ لَكَ بِهَا فِي الْجَنَّةِ كَذَا وَكَذَا.

---

[١] أي من البلاء

[٢] أي نكثر من الدعاء

[٣] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[٤] الذي دعا اللهَ في الدنيا

وَدَعَوْتَنِي فِي حَاجَةٍ أَقْضِيهَا لكَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فَلَمْ تَرَ قَضَاءَهَا؟

فَيقُولُ: نَعَمْ يَا رَب.

فَيَقُولُ: إِنِّي ادَّخَرْتُ لَكَ بِهَا فِي الْجَنَّةِ كذَا وَكَذَا.

فَلَا يَدعُ اللَّه عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا بَيَّنَ لَهُ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ادَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ.

فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الْمَقَام: يَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ عُجِّلَ لَهُ شَيءٌ مِنْ دعُائِهِ][1].

فلقد أمّن سبحانه عبده المؤمن من أن يردّ دعوة العبد إذا دعاه، لكن الإجابة تكون كما هو سبحانه أعلم بمصلحة الداعي، فقد تأتيك الإجابة في وقت قريب، وقد يؤخرها الله لك إلى الآخرة، قال جل جلاله:

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾.

كما أنه سبحانه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ الذي أمّن عباده من أن يخيب ظنهم الحسن به جل وعلا، فلقد جاء في الحديث القدسي قوله سبحانه وتعالى:

[أنا عند ظن عبدي بي؛ فليظن بي ما شاء][2].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] انظر مستدرك الحاكم كتاب الدعاء وشعب الإيمان للبيهقي

[2] عزاه الحافظ السيوطي في (الجامع الكبير) إلى ابن أبي الدنيا، والحكيم، وابن حبان، وابن عدي، والطبراني، والحاكم، والبيهقي، وتمام عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

المحتوى

المحاضرة الأولى: حول تفسير أوائل آيات سورة الحجرات ١
المحاضرة الثانية: حول تفسير أوائل آيات سورة الحجرات ١٢
المحاضرة الثالثة: حول تفسير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾... ٢٠
المحاضرة الرابعة:حول معاني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وتفسير سورة الإخلاص ٣٤
المحاضرة الخامسة: حول تتمة البحث في تفسير سورة الإخلاص..... ٤٩
المحاضرة السادسة:كلمات حول تفسير سورتَي: الفلق والناس........ ٥٥
المحاضرة السابعة: حول شُعب الإيمان، وأن الإيمان بالله تعالى هو النواة الأُولى لجميع الشّعب الإيمانية.. ٧٥
المحاضرة الثامنة: حول بعض شُعب الإيمان، ومنها: الاعتقاد أن لله الأسماء الحسنى.. ٩٥
المحاضرة التاسعة: حول سورة الإخلاص.............................. ١١١
المحاضرة العاشرة: حول تفسير سورة العلق............................ ١٢٦
المحاضرة الحادية عشرة: حول تفسير اسمه سبحانه: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾.... ١٥١

كُتُب للمُؤَلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة -أمّ القرآن الكريم.

* حول تفسير سورة الحجرات.

* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.

* حول تفسير سورة الملك.

* حول تفسير سورة الإنسان.

* حول تفسير سورة العلق.

* حول تفسير سورة الكوثر.

* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.

* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.

* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.

* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها -آدابها -خصائصها.

* شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ:

فضائلها -معانيها -شواهدها ومشاهدها -مطالبها .

* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة -شمائله المجيدة.

* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.

* التقرب إلى الله تعالى: فضله -طريقه -مراتبه .

* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين -فضائلها -آثارها -آدابها.

* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها -فضائلها -فوائدها.

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.

* الدعاء : فضائله -آدابه -ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن.

* حول ترجمة المرحوم الإمام العلّامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه.

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.

* مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.

* الصيام : آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

مِن آثار الشيخ الإمام

* محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

* محاضرات حول الإسراء والمعراج : آثاره -فضائله -أسراره.

*محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

* محاضرات حول عالم الجنة : مراتب الجنة -ألوان النعيم في الجنة صفات أهل الجنة .

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - الجزء الأول.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم في الوعظ والتذكير - الجزء الثاني.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -موقف تعليم الكتاب -الجزء الثالث.

* محاضرات حول مقامات أهل الإيمان -الجزء الرابع .

* محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

* محاضرات حول تفسير خواتيم سورتَي البقرة وآل عمران والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات.

* محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* مجالس الحديث النبوي الشريف: الأجزاء الخمسة.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

قَبَسات من المؤلفات

* الكلام حول الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده.
* حُكْمُ أَبَوَيْ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشَّريفَين.
* أربعون حديثاً من جوامع كَلِم النبي ﷺ.
* شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة.
* التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ.
* رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم.
* عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله.
* حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ .
* سبب وجود بعض الأحاديث -التي فيها ضَعْفٌ- في مؤلفات الإمام.
* سبب ذِكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).
* البشائر الغُرر للمكثرين من الصلاة على سيد البَشر ﷺ.
* آثار الزكاة وأنوارها ، وعقاب مانع الزكاة.
* صلاة الاستخارة ودعاؤها.
* وصول الثواب إلى الأموات.
* معاني الصلاة الإبراهيمية.

وتجدونها وغيرها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - قبسات من المؤلفات